اليهود كما يصورهم القرآن

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، تنزه عن النقص والقصور وخلق الإنسان فأبدع خلقه، وهداه فأحسن هديه وأشهد أن محمدا عبده ورسوله خير نبى لخير أمة أخرجت للناس بلغ الرسالة وأدى الأمانة وجاهد فى الله حق جهاده.

أما بعد ...

فيا أيها الإخوة المسلمون

اليهود أشد الناس عداوة للمسلمين - هذه حقيقة لا شك فيها : ترويها أحداث التاريخ، ويؤكدها الواقع المرير، ويصورها القرآن الكريم فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا ، وأنهم لا يستكبرون** ﴾. سورة المائدة آيه ٨٢.

والآية الكريمة تعرض علينا الصورة فى بلاغة وقوة، وفى وضوح ودقة، فإذا ما تأملنا الألفاظ والمعانى وصلنا إلى كثير من ملامح الصورة :

فالعداوة مذكورة فى تعبير مباشر، وبلفظ صريح - وهى عداوة صادرة من جانب واحد، هو الجانب اليهودى، ولا تقابلها عداوة من جانب المسلمين، وشأن العداوات فى الدنيا أن تكون نابعة من خلاف بين طرفين، وأن تقوم على التناحر والتصارع. أما هذه العداوة فنابعة من قلوب حاقدة، وتهدف دائما إلى التدمير حتى ولو قوبلت بالصفح والصبر. عداوة شربت سم الضغينة والكراهية، وعاشت على المقت والحسد والشر.

والآية الكريمة تصف هذه العداوة بالشدة والمبالغة، فهى أشد الأنواع، وأصحابها أشد الناس مقتا وكرها للمسلمين، هكذا - أشد الناس بدون استثناء.

والتعبير القرآنى يسوى بين عداوة اليهود وعداوة المشركين من عبدة الأوثان - بل لعله أشار إلى أن عداوتهم أشد حتى من عداوة المشركين حين قدمهم فى الذكر على المشركين - وفى هذا نوع من التوبيخ لهؤلاء الأعداء، ودليل على أن عداوتهم عداوة غير شريفة، فهم فى الأصل أهل كتاب، يجمعهم مع المسلمين نبع واحد من ينابيع الإيمان هو وحى السماء واليهود يعرفون فى كتبهم محمدا باسمه وصفته ﴿ **ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد** ﴾سورة الصف آية ٦ - ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل** ﴾. ويعرفون أنه داعية خير، وسلام، ورحمة، وطاعة لله ﴿ **يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم، والأغلال التى كانت عليهم** ﴾. سورة الأعراف آيه ١٥٧. ومع هذا كله فقد فاقوا فى عداوتهم عباد الحجر، فكانوا بهذا أبلغ الناس نذالة وضعة، وأبعد الناس عن الشرف والعفة/ قد يعذر المرء إذا عادى عن جهل، أو عادى عدوه الذى يؤذيه - أما أن يعادى المرء من يعرف فضله وأمانته وصدقه، اما أن يعادى من يحل له الطيبات، ويحرم عليه الخبائث - فهذا دليل على منتهى الفساد فى العقيدة، والإسراف فى الظلم والهوى.

ومن بلاغة التعبير القرآنى أن الآية تؤكد العداوة من أول كلمة بهذه اللام الداخلة على الفعل، وبهذه النون المشددة فى آخر الفعل (لتجدن)، وكلاهما يعطى المعنى قوة، ويسحب هذه القوة على كل كلمة تأتى بعد ذلك فى الآية.

والآية البليغة تشير إلى شئ من أسباب هذه العداوة فى موضعين :

الأول : حين عبرت عن المسلمين بقوله تعالى (للذين آمنوا) فى الوقت الذى عبرت فيه عن اليهود باسمهم الدال على جنسهم - وكأنه لا سبب لهذه العداوة الشديدة إلا هذا الإيمان الذى أصبح صفة للمسلمين - وبالروعة الدلالة، وبالعمق الأسى - حين يكون الإيمان بالله سببا من أسباب العداوة الباغية.

والثانى : أن الله سبحانه وتعالى قارن بين اليهود والنصارى، ووصف النصارى بأنهم أقرب مودة للمسلمين، وبيّن العلة فى ذلك وهى أن بعض النصارى اتصفوا بأربعة أمور

هى : العلم - والعبادة - والتواضع - والاستجابة للحق» وذلك كله مفهوم من قوله ﴿ **ذلك بأن منهم قسيسين، ورهبانا** ﴾. أى علماء وعبادا ﴿ **وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق** ﴾. سورة المائدة آيات ٨٢، ٨٣. ويفهم من هذا صراحة أن اليهود لم يتصفوا بشئ من تلك الصفات، فإذا كان النصارى أقرب مودة من المؤمنين لهذه الأسباب، فاليهود أشد الناس عداوة لبعدهم عن هذه الأسباب، وهذه حقيقة معروفة :

- فليس بين اليهود علماء دين يدعون إلى الخير، وأحبارهم دعاة شر ورذيلة.

- وليس بينهم نُسَّاك يعبدون الله عبادة طاعة وتقوى - وإنما ديانتهم عقيدة موروثة، تعطيهم (كما يتصورون) معنى التفوق على الناس، والامتياز المطلق على البشر.

- ولهذا كانت لهم كبرياء مرذولة، وكان لهم غرور وجنون بالعظمة والاستعلاء.

هذه هى عداوة اليهود للمؤمنين كما يصورها القرآن الكريم.

عداوة قاسية عنيفة، نابعة من الحقد الأسود، طافحة بالمقت البغيض، عداوة تأصلت وامتدت جذورها مع التاريخ، ومضت عبر الأجيال.. تغذيها الدسائس والمؤامرات، وتسقيها الحروب بالدماء والخصومات، فتنحرف إلى أساليب بعيدة عن الشرف منذ بدأت مع التاريخ إلى اليوم.

وما نريد من شبابنا ورجالنا إلا أن يعرفوا ليعملوا.

إن معرفة عدونا واجب دينى وقومى - وهى بداية العمل الناجح ووسيلة من وسائل النصر.

ولقد تحدث القرآن الكريم عن عداوة اليهود للمسلمين، وصورها فى أبلغ عبارة حين قال : ﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا** ﴾. سورة المائدة آية ٨٢.

وقد عرفنا أنها عداوة ظالمة باغية، شربت من سم الحقد البغيض، وتغذت من داء

الحسد القبيح، وعاشت فى ظلال سوداء من الدسائس والمؤامرت، والتاريخ شاهد على ما نقول، والمحنة التى نكتوى الآن بنارها شاهد آخر على ما نقول :

أمـــا نار المحنة فقد أكلت من شبابنا، ودمرت من مصانعنا وبيوتنا، وشردت من شيوخنا وأطفالنا، ورملت من نسائنا، ومزقت من أسرنا - ولا تزال تحرق القلوب، وتشوى الأكباد فتغنينا عن الحديث والبيان.

وأما التاريخ فيروى من أحداثه الكثير :

يروى التاريخ أن محمدا صلى الله عليه وسلم حين هاجر من مكة إلى المدينة وجد اليهود - كانوا يعرفونه فى كتبهم، وكانوا واثقين من صدقه - لكنه حين وفد عليهم ناصبوه العداء، وأوقدوا نار الفتنة، وقعدوا له فى كل مكان، دبروا له المؤامرات، وناقشوه بالباطل، وجادلوا فى الحق بعدما تبين لهم - ولم يتورعوا عن التخطيط لقتله مرة بعد مرة.

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى النضير يستعينهم فى دية قتيلين من بنى عامر لحلف بينهما - فلما كلمهم فى ذلك قالوا : نعم يا أبا القاسم - نعينك على ما أصبت، ثم خلا بعضهم ببعض - فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد إلى جنب جدار من بيوتهم - فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه، فتقدم لهذا رجل منهم اسمه عمرو بن جحاش وقال : أنا لذلك. فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال ، لكن رسول الله علم بما أراد القوم فقام ورجع إلى المدينة، ولقى أصحابه فأخبرهم بما أرادت اليهود من الغدر به.

ويروى التاريخ عن صفية بنت حيى بن أخطب، وكان من زعمائهم قالت : كنت أحب ولد أبى إليه، وإلى عمى أبى ياسر - لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذانى دونه - قالت : فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، ونزل قباء، غدا عليه أبى وعمى مغلسين - أى مبكرين فى غلس الصبح - فلم يرجعا حتى كانا مع غروب

الشمس، فأتيا كالّين ساقطين يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنت أصنع فو الله ما التفت إلى واحد منهما مع ما بهما من الغم، وسمعت عمى أبا ياسر، وهو يقول لأبى : أهو هو ؟ - يعنى أمحمد هو الرسول الذى نعرفه وننتظره حقا؟ - قال أبى : نعم والله - قال : أتعرفه وتثبته؟ قال : نعم - قال فما فى نفسك فيه؟ قال : عداوته والله ما بقيت.

فهذا اليهودى يعرف أن محمدا هو رسول الله حقا، لكنه لا يجد فى نفسه إلا العداوة ما دام حيا، وهو يقسم على ذلك.

ويروى التاريخ عن جماعة من الأنصار قالوا : كنا قد علونا اليهود فى الجاهلية، ونحن أهل شرك، وهم أهل كتاب - وكان اليهود يقولون لنا : إن نبيا سيبعث الآن، نتبعه - قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم - فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به - وعلة كفرهم فى هذه الرواية أنه بعث من العرب ولم يبعث من اليهود.

ويروى التاريخ عن ابن عباس رضى الله عنهما :

أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا ماكانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل : يا معشر يهود : اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته - فقال أحد بنى النضير : ما جاءنا بشئ نعرفه، وما هو بالذى كنا نذكره لكم، فأنزل الله فى ذلك من قولهم : ﴿ **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين** ﴾. سورة البقرة آية ٨٩.

يا أخى فى الله :

هذا جانب من شهادة التاريخ - إذا ذكرناه اليوم مع قصة المحنة الى نعيشها اتضحت لنا جوانب الصورة - صورة العداوة التى ملأت قلوب اليهود، وصبغت علاقاتهم بنا على هذا الزمان الطويل.

فلنقابل العداوة بالعداوة، والحقد بالحقد، والظلم بالظلم، فكتابنا الصادق الحق يقول :

﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾ .سورة البقرة ١٩٤.

واليهود شعب ملعون، لعنه الله فى كتبه المقدسة، ولعنه التاريخ بأحداثه المختلفة ولعنته الشعوب فى كل زمان ومكان. هذا أمر لا يختلف فيه اثنان.

ولقد صور القرآن الكريم هذه اللعنة، ووضح جوهرها وأسبابها ونتائجها فى قوله تعالى : ﴿ **لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم - ذلك بما عصوا، وكانوا يعتدون - كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون، ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم، أن سخط الله عليهم، وفى العذاب هم خالدون، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء، ولكن كثيرا منهم فاسقون** ﴾. سورة المائدة آيات ٧٨ : ٨١.

والتصوير هنا دقيق واضح. فاليهود ملعونون، ولعنتهم جاءت فى الكتب المقدسة كلها، وهي لعنة أبدية دائمة تطاردهم عبر الأجيال والأحداث، واللاعن الساخط هو الله سبحانه وهذه اللعنة وردت على ألسنة الأنبياء والرسل، وفى الآية مثال فقط ﴿ **على لسان داود وعيسى بن مريم** ﴾ - وليس المراد الحصر - قال ابن عباس : لعنوا فى التوراة والإنجيل وفى الزبور، وفى الفرقان.

ومن بلاغة التعبير القرآنى هنا أن فعل اللعن مبنى للمجهول (لعن) حتى توحى الجملة بأن اللعن منصب عليهم من كل شئ، فهم ملعونون من لاعن غير مذكور، فهو الله سبحانه، وهو الناس، وهو كل كائن حى.

ثم تسجل عليهم الآية الكفر، فلم تقل «لعن اليهود» بل قالت «لعن الذين كفروا من بني إسرائيل» وبهذا أيضا نجا من اللعنة الأنبياء والصالحون من بنى إسرائيل، وحلت اللعنة على الكافرين منهم - وهذا أمر طبيعى يتمشى مع سنة العدل الإلهى، ويتفق مع

وعد الله لإبراهيم عليه السلام حين طلب الإمامة لذريته، وأبت عناية الله أن تشملهم جميعا ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن - قال إني جاعلك للناس إماما ، قال ومن ذريتى ، قال لا ينال عهدى الظالمين** ﴾ سورةالبقرة آيه ١٢٤ .

بعدذلك انتقلت الآيات إلى بيان الأسباب التى استحق اليهود من أجلها هذه اللعنة وهى - بعد ما ذكرناه من الكفر - أربعة أسباب :

«العصيان - والعدوان - والرضا بالمنكر - وموالاة المنافقين، ومعاونتهم ضد المسلمين».

وأمر واحد من هذ الأمور يكفى لأن يدفع صاحبه بالخزى والعار - فكيف إذا اجتمعت كلها فى شعب واحد - ووجدت أرضا خصيبة من الكفر - إن هذا الشعب يصبح أهلاً لكل نقيصة، وموضعا لكل سخط، وهدفا لكل نقمة - ومن وراء ذلك كله (لعنة الله).

أما العصيان فطبيعة فيهم - خالفوا موسى وأخاه هارون فى كل الأمور، وارتكبوا من الذنوب كل ما نهتهم عنه التوراة - وهذا مثال واحد من عصيانهم صوره القرآن الكريم أجمل تصوير فى سورة المائدة :

لقد طلب منهم موسى أن يدخلوا الأرض المقدسة التى رحلوا عنها إلى مصر أيام يوسف عليه السلام، وأن يستردوها من العمالقة الجبارين، ومهد لهذا الطلب تمهيدا ذكّرهم فيه بنعم الله عليهم ﴿ **وإذ قال موسى لقومه : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم - إذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكا ، وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين - يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم** ﴾ سورة المائدة آيات ٢٠ : ٢١ .

فكان جوابهم العصيان الصريح :

﴿ **قالوا يا موسى - إن فيها قوما جبارين - وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها** ﴾ سورة المائدة آيه ٢٢- وأكدوا العصيان مرة أخرى ﴿ **قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها** ﴾ - ثم

بلغ بهم الكفر منتهاه، وتمادوا فى عصيانهم حين قالوا ﴿ **فاذهب أنت وربك فقاتلا - إنا ها هنا قاعدون** ﴾سورة المائدة آية ٢٤.

ولجأ موسى إلى ربه مستغفرا من هذا الذنب الكبير، متبرئا من هذا العصيان الفاجر : ﴿ **قال رب - إنى لا أملك إلا نفسى وأخى، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين** ﴾ .سورة المائدة ٢٥.

وعاقبهم الله فكتب عليهم التيه فى الأرض ﴿ **قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض، فلا تأس على القوم الفاسقين** ﴾سورة المائدة آية ٢٦.

إن هذا الموقف يذكرنا بموقف المسلمين الأولين حين كانوا مع محمد بن عبدالله فى غزوة بدر، وقال لهم محمد : (**أشيروا على أيها الناس**) - قال بعض الأنصار - كأنك تعرض بنا يا رسول الله - لا نقول لرسول الله كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا - إنا ها هنا قاعدون** ﴾ سورة المائدة آية ٢٤- وقال سعد بن معاذ : «والذى بعثك بالحق لواستعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، ومانكره أن تلقى بنا عدونا غداً».

هنا يتضح عصيان اليهود - وروعه الإيمان عند أصحاب محمد.

وهنا يصاب المؤمن منا بصدمة عميقة حين يرى الأوضاع اليوم وقد تغيرت، وأصبح اليهود (وهم أهل العصيان والجبن) - أصبحوا أدعياء نصر، وحلفاء كبرياء وعزة، وأصبح المسلمون كما نرى من تفرق وضعف - ولا أقول ذلة وهوان.

والأمر بعد ذلك لا يرجع إلى شئ أكثر من العقيدة واليقين - فإن أردنا لديننا الصدق، وهو الصدق - وإن أردنا لقرآننا أن يكون الحق - وهو الحق فلنعُدّ كما كان أصحاب بدر مع محمد حينئذ يتحقق لنا النصر - ويصدق الوعد - ونتلو القرآن لنزداد يقينا بأنه اليقن والحق ﴿ **لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم - ذلك بما عصوا، وكانوا يعتدون** ﴾. سورة المائدة ٧٨.

أما العدوان فله معنيان - العدوان على الناس فى أموالهم وأنفسهم - والعدوان على حدود الله، بمعنى تجاوز هذه الحدود ، والخروج عليها - والعدوان على أى معنى فهمناه صفة أصيلة من صفات اليهود، فهم يعتدون على الناس فى أى مجتمع كانوا، وتحت أى ظروف عاشوا، وهم يتجاوزون حدود الله، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه - ولقد ذكر القرآن الكثير من صور العدوان اليهودى - قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت ، فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين** ﴾ سورة البقرة آيه ٦٥ - ووضحت هذا العدوان آية أخرى فى سورة الأعراف - قال تعالى : ﴿ **واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ، إذ يعدون فى السبت ،إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون** ﴾ سورة الأعراف آيه ١٦٣ .

لقد ابتلى الله اليهود فحرم عليهم الصيد فى يوم السبت، وشاءت حكمته أن يكثر السمك فى هذا اليوم، فاحتالوا لمخالفة أمر الله، ورموا أدوات الصيد فى البحر يوم السبت، ثم تركوها ولم يسحبوها إلا فى اليوم التالى، وهذا فى حقيقته عدوان ومخالفة - ولقد حذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم من مثل هذا العمل فقال : «لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل» هذا هو العدوان عند اليهود، ونتيجته ما قاله الله ﴿ **فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين** ﴾ . سورة البقرة آيه ٦٥ .

وأما الرضا بالمنكر فقد حدثنا عنه الصادق الأمين فيما رواه عنه ابن مسعود - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل - كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا - اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده - فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض - ثم قرأ قول الله ﴿ **لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم** ﴾ سورة المائدة ٧٨ - إلى قوله تعالى : ﴿فاسقون﴾ ثم قال : (والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا، أو تقصرنه على الحق أصرا، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه.

ولهذا حثنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه/ على الأمر بالمعروف، والنهى عنى المنكر، حتى لا نكون كاليهود فتحل علينا لعنة الله.

عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

وعن عدى بن عميرة رضى الله عنه - قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة».

وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام خطيبا، فكان فيما قال : «ألا لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه».

وأما موالاة اليهود للمنافقين والمشركين، ومساندتهم لهم ضد المسلمين - فواضح من قول الله تعالى : ﴿ **ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا** ﴾ سورة المائدة آيه ٨٠ - أى يناصرون الكفار من المنافقين والمشركين ، ويؤيدونهم فى محاربة المسلمين، وهذا حق وصدق، ظهر فى كل موقف وقفه المنافقون من الرسول، وظهر فى غزوة أحد وفى غزوة الخندق وغيرهما من الغزوات، ولو أن اليهود كانوا من أهل الخير والإيمان لما نصروا الكافرين على المسلمين ﴿ **ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما تخذوهم أولياء** ﴾. سورة المائدة آيه ٨١.

وحين ذكرت الآيات الكريمة هذه الأسباب - وضحت فى كل نقطة سوء ما كان اليهود يفعلون، فالله يقول : ﴿ **لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾ سورة المائدة ٨٩ - ويقول : ﴿ **لبئس ماقدمت لهم أنفسهم** ﴾ - والتعبير القرآنى هنا يؤكد الحكم بلام القسم، وبالتكرار - وفى النهاية يوضح القرآن الكريم النتيجة ﴿ **أن سخط الله عليهم، وفى العذاب هم خالدون** ﴾. سورة المائدة آيه ٨٠.

وليس هناك جزاء أفظع من هذا الجزاء، ولا أعدل من هذا الجزاء - سخط الله، والخلود فى النار - والله أعدل العادلين.

روائع التصوير القرآنى :

وإن من روائع التصوير القرآنى لليهود قول الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **وضربت عليهم الذلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله - ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا، وكانوا يعتدون** ﴾. سورة البقرة آيه ٦١.

وقوله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ **ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا، إلا بحبل من الله، وحبل من الناس، وباءوا بغضب من الله، وضربت عليهم المسكنة، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون الأنبياء بغير حق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾. سورة آل عمران آيه ١١٢.

والآيتان الكريمتان - تلتقيان على تصوير هذا الشعب فى صورته الصحيحة، صورة الذلة والمسكنة والهوان - صورة الضعة والخسة والاستعباد، هكذا كانوا وعاشوا ، وهكذا سيبقون إلى الأبد على الرغم من الصورة الزائفة التى تطالعنا اليوم من وراء الأحداث.

لقد مضت إرادة الله أن يعيش اليهود أذلاء فى الأرض - من وجدهم أهانهم، ومن عاشرهم استعبدهم ومن عرفهم احتقرهم - إنها فريضة إلهية ألزموا بها شرعا وقدرا وعاشوا فى ظلها الأسود الرهيب منذ كانوا وكان التاريخ إلى اليوم.

كانوا أذلة فى أرض مصر، استعبدهم الفراعنة، وجعلوهم خدما، وبنوا على اكتافهم معابدهم وهياكلهم - ﴿ **وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، يقتلون أبناءكم، ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾. سورة الأعراف آيه ١٤١.

وما رحلوا من الأرض المقدسة إلى مصر إلا نتيجة للهوان الذى كانوا فيه ، وهو هوان يكفى أنه حملهم على الرحيل من بلاد عاشوا فيها زمنا طويلا.

ولما جاء الإسلام وجدهم أذلة فى شمال الجزيرة العربية، يتحكم فيهم عبدة الأوثان من الكفار، وكانوا يعيشون على أمل الرحمة فى هذا النبى الذى آن أوانه، وظنوا أنه

سيكون منهم، فلما بعثه الله من العرب حاربوه، وناصبوه العداء فاضطر إلى طردهم من ديارهم، وبهذا يتحقق دائما قول الله ﴿ **ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا** ﴾. أى فى أى مكان وجدوا، وفى أى زمان عاشوا، وهكذا كانوا على مر الزمان، لم تأت عليهم فترة واحدة من نصفة أو أمان - ولقد كانت حضارة القرن العشرين، ومدنية الغرب المعاصرة أقسى عليهم من كل ما سبق.

فكثير من البلاد الأوروبية تخصص لهم مطاعم وفنادق - وليس من الغريب أن تجد لافتة على أحد المقاهى أو المطاعم وقد كتب عليها «ممنوع دخول الكلاب واليهود».

وبعض البلاد كانت تفرض على اليهود أن يضع على لباسه شارة معينة حتى يعرف الناس أنه يهودى فيعامل معاملة تليق به. وإنهم إلى اليوم ليعاملون معاملة الذلة والهوان على الرغم مما فى أيديهم من سلطان الذهب والجنس والإعلام.

أبداً - ما قال القرآن إلا الحق والصدق، وما كذب التاريخ شيئا من إرادة الله : ﴿ **وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباؤا بغضب من الله** ﴾. سورة البقرة آيه ٦١.

ولقد يسأل سائل : كيف يتفق هذا الكلام مع ما نراه اليوم من سلطان وجبروت؟ إن لهم دولة، وإن لهم قوة، وإنهم سادة المال والإعلام فى هذا العصر، وإنهم ليتحكمون فى مصير الأمم بالجاسوسية، وبالمذاهب السرية، وبالجمعيات الغامضة، وبالإرهاب الفكرى، والتعصب العنصرى، والإغراء الجنسى.

وأقول : إن هذه الوسائل نفسها هى وسائل الذليل - إن الذى يلجأ إلى المال أو الجنس، أو الجمعيات السرية. إلخ ما ذكرناه هو الذليل الذى لا يجد له سندا من حق مشروع.

وإنها لمحة قصيرة فى التاريخ تلك التى يعيشونها اليوم وكأن لهم دولة، إنها برهة من الزمن الطويل، لاتنقض الحكم، ولا تكذب الحق، إنها ثانية من الزمن لا تساوى فى عمر الدنيا شيئا إذا قيست إلى الماضى الطويل، أو الغد الممتد على التاريخ والذلة أنواع - وذلة الغنى قد تكون أقوى وأقسى من ذلة الفقير ومع ذلك - فأى عزة لهم فى العالم؟

إنهم لا يزالون يعاملون معاملة الكلاب - لهم مساكنهم ومشاربهم، وما من مدينة كبيرة فى العالم اليوم إلا وفيها ما يعرف «بحارة اليهود» - ولا تزال شارة الإرهاب توضع على معابدهم فتصيبهم بالهلع والرعب، وإن الدول التى تساعدهم على الهجرة إلى فلسطين تريد فيما تريد أن تتخلص منهم كما يتخلص الإنسان من وباء بغيض - إن ما فعله هتلر بيهود أوروبا يكفى وحده لأن يدمغهم بالهوان إلى أبد الآبدين - وسيسلط الله عليهم فى كل فترة من الزمان من يحقق قوله - إن دولتهم دولة مصنوعة ، دولة غير شرعية، ونصف دول العالم أو أكثر لا يعترف بها، ومن هادنهم أو صادقهم فترة عاد فانقلب عليهم ولعنهم، وفى الغد ستعم اللعنة، وتتم النقمة، ويتحقق قول الله، وهو الحق دائما.

ونعود إلى الآيتين الكريمتين لنستكمل الصورة فنجد القرآن الكريم يوضح أسباب هذه الذلة التى فرضت على اليهود.

﴿ **ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا، وكانوا يعتدون** ﴾ سورة البقرة آية ٦١. فهو الكفر الفاجر - الكفر بالله ورسله - والكفر بالقيم الأخلاقية - والكفر بالضمير الحى الشريف - وهو العدوان على الأنبياء ، وقتلهم - لا لذنب إلا أنهم يدعون إلى الخير والمعروف - قتلوا زكريا ويحيى، وهموا بقتل عيسى لولا أن أنجاه الله منهم. قيل كانوا يقتلون النبى فى الصباح، ويقيمون الأسواق فى المساء - وكأنهم ما ارتكبوا جريمة تهتز لها الأرض والسماء.

ثم هو العصيان وهو العدوان، ولا تزال فى جوانب الصورة القرآنية ظلالا وظلالا - لونت حياتهم بالسواد والهوان.

النفس اليهودية :

ولقد حلل القرآن البليغ النفس اليهودية أدق تحليل، ووصف الخلق اليهودى وصفا واضحا، وبين ما ينطوى عليه من قسوة وطغيان، وكذب وافتراء، وجبن وخديعة .

ونلفت النظر إلى صفة (القسوة) التى صبغت القلب اليهودى بصبغة دامية، كلها إجرام وغلظة وفجور.

فلقد ظهرت قسوة اليهود فى قصة يوسف عليه السلام، إذ تآمر عليه إخوته غيرة وحسدا، ودبروا لجريمة التخلص منه بالقتل، أو بالإلقاء فى الجب حتى يصبح قلب أبيهم خاليا لهم بما فيه من حب وعطف.

﴿ **إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة - إن أبانا لفى ضلال مبين، اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم** ﴾. سورة يوسف آيات ٨، ٩.

وفى هذه الجريمة من القسوة والعنف ألوان : فيها قطيعة الرحم وفيها عقوق الأب وفيها عدم الرأفة بالطفل الصغير، أو بالشيخ الكبير - وفيها معاقبة من لا ذنب له - ولقد بلغت القسوة غايتها لأنهم أجمعوا على إلقائه فى ظلام الجب ليصبح بعد ذلك عبدا يباع ويشترى مع أنه من دمهم، وصلة الدم تمنع الحيوان الأعجم من قتل أخيه الحيوان - ولقد وضح الإجماع فى قوله تعالى : ﴿ **فلما ذهبوا به ، وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون** ﴾. سورة يوسف آيه ١٥.

ولقد مهدوا لجريمة الجب بجريمة أخرى - وأتبعوها بجريمة ثالثة - فهى جرائم متتابعة متوالية تدل على تعمق القسوة فى القلوب - أما الجريمة السابقة فهى جريمة الخداع والزيف والرياء.، والظهور بمظهر الأخ الحبيب، والشقيق الأمين ﴿ **قالوا يا أبانا - مالك لا تأمنا على يوسف، وإنا له لناصحون - أرسله معنا غدا يرتع ويلعب، وإنا له لحافظون** ﴾ سورة يوسف آيات ١١، ١٢. وهذا منتهى الرياء والخداع. وأما الجريمة اللاحقة فهى جريمة الكذب والنفاق ﴿ **وجاءوا أباهم عشاء يبكون - قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق، وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب، وما أنت بمؤمن لنا، ولو كنا صادقين** ﴾. سورة يوسف آيات ١٦، ١٧.

إنها لوحة رسمتها القدرة الإلهية لتصور الإجرام البالغ، والعنف الوحشى، وصدق الله حين صور القسوة فى سورةأخرى فقال : ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله - وما الله بغافل عما تعملون** ﴾. سورة البقرة آية ٧٤.

تصوير واضح ودقيق وشامل - والخطاب موجه فيه لليهود - والقرآن يقول لهم : إن قلوبكم أشد قسوة من الحجارة الصماء التى لا تحس ولا تلين، مع أن قلوبكم من لحم ودم - وفى هذا الخطاب سخرية واستهزاء، وفيه توبيخ لأن القلوب قست بعد أن ظهرت آيات الله، وتكلم الميت فى قصة البقرة، وأرشد إلى قاتله : ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك** ﴾ - أى من بعد ظهور الآيات - وتزيد الصورة عمقا وشمولا حين توضح الآية ما يعترى الحجارة الصماء - إن بعضها يلين فتتفجر منه المياه فى شلالات هادرة، أو قنوات سائلة، وإن بعضها ليتشقق عن عيون من الماء الصافى، وإن بعضها ليهبط من خشية الله وعظمته، أما قلوب اليهود فبعيدة كل البعد عن هذه المعانى .

وقسوة القلب علامة على الطرد من رحمة الله، ولهذا نهى الله المؤمنين عن هذه القسوة، وطالبهم بالرأفة والرحمة حتى لا يكونوا كاليهود : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل، فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون** ﴾ سورة الحديد آية ١٦.

وقسوة القلب صفة صحبت اليهود على الزمان قديمه وحديثه.

- جاء فى الكتاب الثامن والسبعين الذى وضعه المؤرخ كاسيوس - فى الفصل الثانى والثلاثين عن سنة (١١٧)م قوله «حينئذ عمد اليهود بقيادة أندريا إلى ذبح الرومان واليونان، وأكلوا من لحمهم، وشربوا دماءهم وسلخوا جلودهم ولبسوها».

- ونشرت جريدة «الديلى ميل» البريطانية بعددها الصادر بتاريخ ١٧ سبتمبر ١٩٣٦م تصف بعض مشاهد الحرب الإسبانية - قالت :

«فى مقاطعة قرطبة وجد (٩١) مذبوحا، وآخرون وجدوا محروقين وهم أحياء وفى ساقيل هجم الشيوعيون بقيادة امرأة يهودية، وقتلوا السجناء ثم صبوا البنزين على أجسامهم، وأشعلوا فيها النيران».

- وفى التاسع من أبريل ١٩٤٨م كانت مذبحة دير ياسين التى ذهبت مثلا فى الإجرام والقسوة والتى أصابت مندوب الصليب الأحمر الدكتور (لينر) بالإغماء ، لأنه لم يقو على مشاهدة الآثار الرهيبة للجريمة الظالمة.

هذه ألوان من الجرائم تؤيد ما أثبته القرآن منذ أربعة عشر قرنا - وما كان القرآن فى حاجة إلى دليل ، ولكنا نذكرها حتى يسمع الغافلون.

وإنها لإرادة الله التى قضت على هؤلاء اليهود بالقسوة ، وبحياة الظلام.

﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم، وجعلنا قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه** ﴾. سورة المائدة آية ١٣.

جريمة التحريف :

لقد أنزل الله سبحانه وتعالى كتبه المقدسة على رسله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وليبين لهم الحق من الباطل، ولتبقى هذه الكتب بعد الرسل / هداية للضال، ومرجعا للحائر، ونورا على طريق الحياة الطويل.

والقرآن الكريم يعترف بهذه الكتب، ويدعو المسلمين إلى الإيمان بها - قال تعالى : ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم - نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل، من قبل هدى للناس، وأنزل الفرقان** ﴾. سورة آل عمران آيات ٢ , ٣ , ٤.

ومن الطبيعى أن تقُبل كل أمة على كتابها بالبحث والدراسة، وأن تصونه من كل زيف أو تغيير، لكن اليهود بما طُبعوا عليه من خبث وشر عمدوا إلى التوراة إلى كتابهم المقدس، فحرفوه وبدلوه ، وغيروا فيه تغييرا كبيرا، وأخفوا من الآيات مالا يتفق مع رغباتهم وشهواتهم فكانوا بهذا أعداء للحق والصدق والفضائل كلها.

ولقد صور القرآن الكريم هذه الجريمة تصويرا واضحا صادقا، وبين أبعادها المختلفة وأشار إلى بعض أسبابها ونتائجها فى إيجاز ودقة وقوة.

أما إثبات الجريمة فواضح فى آيات كثيرة، قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه، وهم يعلمون** ﴾ سورة البقرة آيه ٧٥ - وقال سبحانه فى سورة النساء : ﴿ **من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه، ويقولون سمعنا وعصينا، واسمع غير مسمع، وراعنا ليًا بألسنتهم وطعنا فى الدين** ﴾ .سورة النساء آيه ٤٦ .

وقال عز من قائل فى سورة المائدة :﴿ **ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب** ﴾ . سورة المائدة آيه ١٥- وقال فى نفس السورة ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم، وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به** ﴾ .سورة المائدة آيه ١٣ .

ويمكننا أن نثبت جريمة التحريف والتزوير فى التوراة بأمور أخرى كالتناقض الموجود بين كثير من العبارات - وكالعبارات التى تهين الأنبياء وتنسب إليهم أمورا بعيدة عما يجب لهم من تشريف وتقديس - وكالقصص والعبارات الجنسية التى يجب أن يتنزه عنها كل كتاب مقدس أو غير مقدس - يمكننا أن نثبت ذلك بنصوص من أسفار التوراة لكنا نريد أن نبقى فى ضوء القرآن الكريم، وقد أثبت على اليهود جريمة التحريف والتزوير بوضوح وجلاء ولا شك أن هذه الجريمة ذات أبعاد مختلفة، وأسباب متعددة، وغايات كثيرة، ونكتفى هنا من الأسباب والغايات بأمرين نذكرهما على سبيل المثال.

الأول : أن التوراة الصحيحة كما أنزلها الله على موسى دعت إلى كثير من الفضائل، وحرمت الكثير من الرذائل، وهذا لا يتفق مع طبع اليهود فحياتهم كلها شر ورذيلة، والغاية عندهم تبرر الوسيلة، ومقياس الخير والشر عندهم هو المصلحة - فما وافق مصلحتك فهو الخير كل الخير، وما خالف هواك فهو الشر كل الشر، لهذا عمدوا إلى الحلال فجعلوه حراما، وعمدوا إلى الحرام فجعلوه حلالا مباحا، وظنوا بذلك أنهم نجوا من العقاب والجزاء، غيروا التوراة المقدسة فى سبيل غرض تافه، ومأرب دنيوى لا قيمة له، وباعوا الفضائل والقداسة والحق والشرف بثمن بخس - قال تعالى: ﴿ **فويل**

للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون﴾. سورة البقرة آيه ٧٩.

الثـــانى : أن التوراة قد تكلمت عن محمد صلى الله عليه وسلم، وأكدت أنه خاتم الرسل، وقد عرف اليهود ذلك، وتأكدوا من صدق الرسول صلوات الله وسلامه عليه، لكنهم كرها منهم فى محمد ورغبة منهم فى إخفاء ما يؤيد دعواه عمدوا إلى توراتهم فغيروا فيها وبدلوا وأزالوا كل الآيات التى تثبت صدق هذا الرسول . وبهذا بلغ بهم الحقد الأعمى درجة من التزوير لم يسبق لها مثيل. قال تعالى مبينا أنه سيكتب رحمته لمن يؤمن منهم بمحمد : ﴿**الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث**﴾سورة الأعراف الآية ١٥٧ - ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿**ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب**﴾ سورة المائدة آية ١٥.

- وأما أبعاد الجريمة فواسعة متعددة، وأكتفى هنا بذكر هذه النقاط :

١ - لم يحرف اليهود كتابا عاديا، أو كتابا من وضع البشر، بل حرفوا كتابا مقدساً أنزله الله إليهم لهدايتهم، فعدوانهم هذا عدوان بشع يتعدى حدود البشر إلى الذات الإلهية وما يصدر عنها .

٢ - لم يغير اليهود ما ظنوه سهوا أو خطأ فى الكتاب السماوى رغبة منهم فى صيانة كتابهم المقدس إن جاز لبشر أن يتصور هذا - لكنهم عرفوا الحق وعقلوه وفهموه ثم عمدوا إلى تغييره وتزييفه وصدق الله : ﴿**وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون**﴾. سورة البقرة الآية ٧٥.

٣ - لم يحدث التحريف من اليهود نتيجة جهل أو نسيان أو خطأ بشرى بل حدث نتيجة لتدبير وتخطيط. وجاهروا بذلك وأعلنوه مبالغة منهم فى عداوة محمد صلى الله عليه وسلم. ووصل بهم الأمر إلى السب والشتم للرسول الكريم قال تعالى : ﴿**من الذين**

هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا، واسمع غير مسمع، وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعنا فى الدين﴾. سورة النساء الآية ٤٦.

٤ - لم يقم بالتحريف والتزوير جماعة من عامتهم - بل قام به علماؤهم وأحبارهم - قال تعالى: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله﴾. سورة البقرة الآية ٧٩.

هذا هو تصوير القرآن لجريمة التحريف التى ارتكبها اليهود، فغيروا كلام الله، واستحقوا لعنته، وطردوا من رحمته - فاعرف يا أخى هؤلاء الأعداء على حقيقتهم، فإن معرفة العدو هى أول الطريق إلى التغلب عليه، كتب الله النصر والعزة لعباده المسلمين.

خيال اليهود

ثم إنه يدعى بنو إسرائيل أنهم شعب الله المختار، وأن الله قد اصطفاهم، وهيأ لهم كل أسباب التفوق، ومنحهم حق السيادة على الناس، وأباح لهم أموالهم ودماءهم، وتسامح معهم فيما يرتكبون من ذنوب وآثام - ويمضى بهم الخيال فيدَّعون أن الله قد حرم عليهم أن يختلطوا بأبناء الشعوب الأخرى إلا عند الضرورة، وحتى تحين الفرصة للغدر بهم، ونقض العهود معهم، والاستيلاء بعد ذلك على ممتلكاتهم، وجعلهم عبيدا فى ديار لهم فيها وحدهم حق السيادة.

هكذا يؤمن كل يهودى فى العالم اليوم، وقبل اليوم، وتحت سلطان هذه الفكرة يعيشون بين الناس، إنهم ينتظرون يوما تتم لهم فيه الغلبة، ويتحقق الوعد الإلهى على زعمهم، ويصبحون ملوك الأرض كلها والناس عندهم عبيد.

فكرة رهيبة سيطرت على المجتمع اليهودى منذ وجد إلى اليوم، ودفعت اليهود إلى ارتكاب كل ما حرمته القوانين السماوية والوضعية من جرائم ورذائل فى سبيل السيطرة والسيادة - وبهذا تحللوا من التمسك بالمبادئ أو التقيد بالقوانين وخرجوا على كل عرف

وخربوا كل شريعة، ودمروا كل فضيلة، معتقدين أن الله أباح لهم كل ذلك، وهذه هى ذروة الجرائم عند اليهود.

قوم يؤمنون بأنهم السادة والناس عبيد، وبأن الله أباح لهم ما حرمه على غيرهم - مع أنهم فى حقيقة أمرهم أذل العبيد، وأحقر الكائنات - إن التعالى من الوضيع عجيبة - وإن اليهود حين يؤمنون بهذه الفكرة يضعون أنفسهم فى جانب، ويضعون كل الشعوب الأخرى فى جانب آخر. فهى عصبية الجنس والدم والعقيدة، وهي العنصرية المختلفة الأسباب والدوافع وهى الشر الأسود الذى عميت عنه البشرية كلها، ولم يتعرض له بالبيان والتوضيح إلا الإسلام الذى فضح أسرارهم، وكشف زيفهم، وعرّاهم أمام الناس من كل ثياب الخديعة والضلال.

وفكرة (الشعب المختار) تنبع من جذور تاريخية واجتماعية ونفسية - أهمها أنها أثر من آثار الكبت والحقد اللذين يبحثان دائما عن وسيلة للانفجار والتدمير، وعن منطلق للتعويض وإرضاء الذات - والمنبوذ إذا طارده المجتمع لرجس فيه أو شر أو مرض حقد على المجتمع، وانطوى على نفسه يشرب ضغينته سما من الكراهية، ثم يحاول التبرير والتعليل لنفسه المريضة، فيمضى ليقنع هذه النفس بأنه خير من هؤلاء الذين يطاردونه، ولو واتته الفرصة بعد ذلك لكان انتقامه من الناس رهيبا.

لقد عاش اليهود مطرودين فى كل مجتمع، منبوذين فى كل بيئة، عاملهم الناس على أنهم وباء خطير، وكانوا فى بعض مجتمعات أوروبا - التى تساندهم اليوم - أحقر من الكلاب - لهم أماكنهم الخاصة ، فتكونت عندهم عقدة الضغينة والحقد، ثم انبثقت عنها روح الانعزال عن المجتمعات، وفكرة التعالى والسيادة، ثم عمد أحبارهم إلى تثبيت هذه الفكرة بأسانيد من الدين، وكان هذا سببا من أسباب التحريف فى التوراة - والباحث فى أسفار التوراة المحرفة يجد الكثير من التعاليم التى توحى لليهود بأنهم من طبيعة الله وجوهره، وبأن لهم الحق فى تملك العالم والسيطرة عليه - جاء فى توراتهم المزيفة: «سيقوم الرب، ويقيس الأرض، ويجعل عبدة الأصنام تحت يد إسرائيل» وفيها ما أنقله بأخطائه «إن الله سيرى وصايا أبناء نوح السبع، وبما أنهم لم يسيروا بموجبها

- سيغضب عليهم، ويسلم جميع ممتلكاتهم إلى اليهود» - ويوضح التلمود أن أبناء نوح هم شعوب الأرض وأما الإسرائيليون فهم وحدهم أبناء إبراهيم.

وتعاليم التلمود تبيح لهم السرقة والقتل والغش والخداع وارتكاب كل منكر فى حق غير اليهودى - وقد لخص زعيم من قادتهم اسمه (دكتور أوسكار ليفى) كل هذه المعانى فى جملة واضحة صريحة فقال : «نحن اليهود لسنا إلا سادة العالم ومفسديه، ومحركى الفتن فيه وجلاديه».

والشعب اليهودى يتخذ له شعارا فيه منتهى القسوة والخبث - ونحن نظن أن شعارهم نجمة سداسية فقط، لكن الشعار الحقيقى هو نجمة سداسية تحيط بها أفعى، ويرمزون بالأفعى إلى قوة اليهود وأسلوبهم الناعم الخبيث فى الإحاطة بالعالم كما تحيط الأفعى بالنجمة السداسية.

والبروتوكول الثالث لحكماء صهيون فيه شرح لهذه الفكرة، قال صاحب البرتوكول : «أستطيع اليوم أن أؤكد لكم أننا على مدى خطوات قليلة من هدفنا، ولم يبق إلا مسافة قصيرة كى تتم، الأفعى الرمزية - شعار شعبنا - دورته . وحينما تغلق هذه الدائرة ستكون كل دول أوروبا محصورة فيها بأغلال لا تكسر».

وفى نفس البروتوكول جاءت هذه العبارة الرهيبة التى توضح فكرة «الشعب المختار» وأسلوبه : «إن كلمة الحرية تزج بالمجتمع فى نزاع مع كل القوى حتى قوة الطبيعة وقوة الله، وذلك هو السبب فى أنه، يجب علينا - حتى نستحوذ على السلطة - أن تمحق كلمة الحرية من معجم الإنسانية، لأنها رمز القوة الوحشية التى تمسخ الشعب حيوانات متعطشة إلى الدماء، ويجب أن نركز فى عقولنا أن هذه الحيوانات تستغرق فى النوم حين تشبع من الدم - وحينئذ يصبح يسيراً علينا أن نستعبدها»

فالشعوب فى نظر اليهود حيوانات يجب أن تستعبد.

يا أخى المسلم :

هذه هى فكرة اليهود فى السيطرة على العالم، وقد أرادنا الله أن نقف نحن المسلمين على طريق اليهود لأنهم بدأوا بأرضنا نحن، ومسؤليتنا فى اللقاء معهم خطيرة، وكتابنا الكريم لم يغفل الحديث عن هذه الفكرة - بل صورها ووضعها فى موضعها الصحيح.

التصوير القرآنى لفكرة الشعب المختار :-

والحقيقة التى لا شك فيها هى أن القرآن تعرض لهذه الفكرة، وتحدث عنها بصراحة حين تحدث عن نعم الله التى أنعم بها على اليهود - والقارئ للقرآن الكريم يجد الكثير من الآيات التى تتناول هذا الموضوع، لكنى أحب أن أقف عند ثلاث آيات لأن بعض المفكرين من اليهود استشهدوا بها على دعواهم الكاذبة.

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة البقرة : ﴿ **يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم، وأنى فضلتكم على العالمين** ﴾. سورة البقرة آية ٤٧.

ويقول فى سورة الجاثية : ﴿ **ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على العالمين، وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم، إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾. سورة الجاثية آيات ١٦، ١٧ ويقول فى سورة الدخان : ﴿ **ولقد اخترناهم على علم على العالمين** ﴾. سورة الدخان آية ٣٢.

فهذه الآيات وأمثالها تتحدث عن تفضيل لبنى إسرائيل فى أثناء الحديث عن نعم أنعم الله بها عليهم - هذه حقيقة، ولكن المتأمل للآيات، والباحث عن أسباب نزولها وعن أهدافها يجد أنها ذكرت فى مجال التوبيخ والوعيد - فقد خرجوا على طاعة الله، وأفسدوا فى الأرض، واعتدوا على الحرمات والمقدسات، ولم يعملوا بما فى كتابهم المقدس مع أن الله أعطاهم من النعم الكثير مما لم يعطه لأحد من أهل زمانهم - ففيهم كثير من الأنبياء وكثير من الملوك والرؤساء، ولم يكن فى الأمم السابقة من الأنبياء

والملوك مثل ما كان عند بني إسرائيل، ولقد نجاهم الله من فرعون، ومن الذل الذى عانوا منه فى مصر بسبب أعمالهم الخبيثة، ثم أنقذهم من التيه بعد أربعين سنة من الضياع والتشرد - فماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة عصيانا وفسادا وطغياناً فى الأرض. وتكبرا على العباد، وتغييرًا لكلام الله.

فالقرآن فى هذه الآيات يصورهم وهم يمرون بحالات ثلاث :

حالة العطاء والخير والتفضيل - ثم حالة الجحود والعصيان والخروج على تعاليم الله، ثم **حالة الانتقام الإلهى العادل** - والقرآن يعمد إلى المرور بهذه الحالات الثلاث ليكون فى قصصهم عبرة لأولى الألباب، وليتعظ المؤمنون بما حدث لليهود وليقابلوا النعمة بالحمد والشكر حتى لا تكون نهايتهم هى ما حدث لبنى إسرائيل.

لم يذكر القرآن التفضيل على أنه هدف فى ذاته، أو حقيقة تذكر وحدها للتسجيل، وإنما ذكره فى مقام التوبيخ والوعيد لقوم لم يعملوا بموجب النعمة.

والأمر هنا كحال السيد مع عبده الخائن - فالسيد حين يقول له لقد أعطيتك من خيرى الكثير وأغدقت عليك المنح والأفضال وفضلتك على غيرك من عبيدى ، لكنك خالفت أمرى، وجحدت فضلى، وقابلت المعروف بالنكران، ولهذا حلت عليك نقمتى. ونزل بك غضبى - السيد حين يقول لعبده العاصى هذا - لا يقصد أبدا أن يبين فضله، ولا أن يثبت له مزية على غيره من الناس.

ولعل الأقرب إلى المنطق والعقل أن الآيات ذكرت لبيان الخسة والنذالة، ولتوضيح ما طبع عليه اليهود من جحود للنعمة، وأن ذكر النعمة والتفضيل كان تمهيدًا لبيان درجة الجحود. إن الآيات تتحدث عن العقوق والعصيان لا عن التفضيل والتمييز.

وفى قوله تعالى : ﴿ **وأنى فضلتكم على العالمين** ﴾. سورة البقرة آية ٤٧.

أما المراد (بالعالمين) فهم الذين كانوا يعيشون فى أيامهم كعاد وثمود وقوم نوح وغيرهم ممن خرجوا على أوامر الله فعاقبهم الله بالهلاك، وسلط عليهم العواصف

والزوابع والطوفان، والله سبحانه وتعالى يروى ذلك كله للنبى صلى الله عليه وسلم وللأمة الإسلامية للعبرة والعظة.

قال الإمام الرازى فى تفسير هذه الآيات.

فإن قيل إن تفضيلهم على العالمين يقتضى تفضيلهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم - وهذا باطل - فكيف الجواب ؟ قلنا : الجواب أن المراد فضلتكم على أهل زمانكم، لأن أمة محمد لم تكن موجودة فى ذلك الزمان - فلم يكن التفضيل عليها.

إن رأى القرآن فى اليهود واضح وصريح، إنهم شعب ملعون مطرود من رحمة الله واقرأ معى هذه الآيات من سورة الأحزاب .

﴿ **لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا - ملعونين - أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا** ﴾. سورة الأحزاب آيات ٦٠، ٦١.

فهل يتفق هذا مع التفضيل والاختيار؟

إن القرآن لا يعطيهم فضلا ولا كرامة بل يحكم عليهم بالطرد من رحمة الله، وبأنهم أينما حلوا أخذوا لذلتهم وجبنهم، ونقضهم للعهود وقتلوا تقتيلا شديداً.

ذلك هو حكم الله، وذلك هو تصوير القرآن.

وما أعدل حكم الله، وما أبلغ تصوير القرآن.

ونمضى مع القرآن الكريم فى تصويره الدقيق لأخلاق اليهود وطباعهم، وفى حديثه عن نزعاتهم العدوانية، وعن جذورها النفسية والتاريخية.

ونقف عند الآيات من سورة الإسراء، التى تسمى أيضا سورة بنى إسرائيل.

جانب من حياة اليهود : -

من بلاغة القرآن الكريم أنه ينوع فى أساليب العرض والتوضيح، وأنه يقصد إلى المثل فى أحيان كثيرة لتصبح الصورة المعنوية صورة حسية يعرفها كل الناس مهما كانت درجة فهمهم وإدراكهم.

ونقدم مثلا عجيبا ضربه الله لليهود فصور به جانبا من حياتهم، وأسوبا سلكوه فى فهمهم لكتابهم المقدس وهو التوراة - قال تعالى فى سورة الجمعة : ﴿ **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ سورة الجمعة آية ٥ .

والذين حملوا التوراة هم بنو إسرائيل، فأصبحوا مكلفين بها، مطالبين بالعمل بما فيها، لكن اليهود وقفوا منها موقفا غريبا، فقد اكتفوا بحفظ ألفاظها، ولم يحاولوا أن يستفيدوا منها، بل عمدوا إليها فحرفوها وبدلوا ما فيها مما يخالف أهواءهم وشهواتهم - وضرب القرآن لهم المثل فى هذه الحالة فقال : إن مثلهم كمثل الحمار يضع صاحبه على ظهره الكتب المفيدة النافعة فلا يعرف ما فيها، ولا يستطيع الانتفاع بها.

وهذا طبعا تحقير لليهود، وليس من العجيب أن يحقرهم القرآن الكريم، وأن يجعلهم مثل هذا الحيوان الذى عرف بين الناس بالغباء والبلادة - لأنهم فى الواقع أسوأ حالاً من الحمار فى أمور كثيرة

- فالحمار لا يفهم، وهم يفهمون ويدركون لأن الله أعطاهم نعمة العقل والإدراك.

- والحمار لهذا غير مكلف. أما هم فمكلفون، ومطالبون باتباع ما فى التوراة من تعاليم.

- والحمار لا يفعل فى الكتب التى على ظهره شيئا - بل يقف منها موقفا سلبيا - أما هم فيعمدون إلى الكتب المقدسة فيغيرون فيها ويبدلون فى سبيل هدف دنيوى.

لكل هذا كانوا فى مرتبة أدنى من مرتبة الحمار، وبهذا صرح القرآن الكريم حين قال : ﴿ **أولئك كالأنعام - بل هم أضل - أولئك هم الغافلون** ﴾ سورة الأعراف آية ١٧٩ .

- والآية نص فى توضيح طبع يهودى، ولكنها - مع ذلك - تنطبق على كل غافل يهمل الاستفادة من الخير حين يعرض له الخير، أو يعجز عن الانتفاع بالعلم والمعرفة، أو يعرض عن الحق حين يقدم له.

إنها تتناول العالم الذى لا ينتفع بعلمه - والغنى الذى لا ينتفع بماله.

والقوى الذى لا يستفيد من قوته - تتناول كل من أعرض عن الحق أو الخير أو المعرفة ولقد يقول قائل : إن اليهود اليوم قوة كبرى فى العلم، ولهم نفوذ واسع فى مجالات الحياة العلمية والاقتصادية والثقافية - والمجتمع اليهودى يبدو على صورة من التماسك تناسب العصر الحديث.

ونقول : هذه صورة حسية خادعة، وصورة موقوتة غير دائمة - إن القوة المادية ليست كل شئ فى الحياة، وإن مجتمعهم الحديث لم يتعرض لمحنة ولا لتجربة قاسية كالتى تعرض لها المجتمع الإسلامى على مدى الزمن الطويل ، وإن الظروف التى تعيشها دولتهم تحملهم على الترابط والتساند، وإن قوى أخرى تسندهم لأسباب مختلفة - وربما كانت تسندهم كرها فينا نحن المسلمين قبل أن يكون ذلك حبا فى اليهود - أو قد تسندهم خوفا من شرهم وفسادهم، وعندما تتخلى عنهم هذه القوى، وعندما يتعرض المجتمع اليهودى لمحنة شديدة، أو لاختبار مادى أو نفسى سيظهر على حقيقته، وينهار هذا المجتمع الزائف، وتتضح الصورة الصادقة التى رسمها القرآن فى مثله العجيب.

وفى الآية الكريمة نقاط أخرى نذكرها زيادة فى توضيح الصورة :

- فيها زيادة فى الذم، وتأكيد للإهانة والتحقير - قال تعالى ﴿ **بئس مثل القوم** ﴾.

- وفيها بيان لأسباب أخرى دعت لذكر المثل هى أنهم يلجأون دائما إلى الكذب - وإلى الظلم قال تعالى : ﴿ **بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ سورة الجمعة آية ٥.

أبدا - لم يظلم القرآن اليهود بهذا التصوير - بل كان صادقا كل الصدق لأنهم

يعرفون الحق من الباطل، والخير من الشر، والنور من الظلام - ولكنهم يقصدون دائما إلى الباطل والشر، ويلجأون إلى الظلام كخفافيش الليل وبومه.

والنقطة الأساسية فى التصوير هنا هى عدم الانتفاع بالعقل والمعرفة - وليست عدم المعرفة، والذى لا يعرف قد يكون له عذره - أما الذى يعرف ولا يعمل بما يعرف فهو الغبى الجاهل أو هو الحقود الباحث عن الشر.

نعم - عند اليهود معرفة وعلم - لكنهم يحولون العلم إلى ضرر، ويتنكرون لكل القوانين الدولية، فلا يؤمنون بعهود، ولا يحترمون مواثيق، ولا يتقيدون بشرف أو ضمير - بل لعلهم يصلون إلى أبعد من ذلك فيستحلون ما حرم الله، ويجعلون كل مبدأ خاضعا للمصلحة.

ومن هنا دمغهم القرآن الكريم بهذا المثل، وكان صادقا معهم ومع الحقيقة ﴿ **بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ سورة الجمعة آية٥.

جرأتهم وتطاولهم على الله :-

بلغت الجرأة باليهود أنهم تطاولوا على الله سبحانه، وأساءوا الأدب معه، وقالوا فى ذاته المقدسة ما لا يليق أن يصدر من عبيد فى حق خالقهم . وإنها لجريمة كبرى أن يتطاول العبد على ربه، وأن يسئ الأدب مع خالقه ورازقه . ولكنها طبيعة اليهود الفاسدة، ونفوسهم المريضة . والله فوق الكلام والإساءة تنزه فى عليائه، وتقدس فى ذاته وصفاته.

ومن أراد أن يعرف رأى اليهود فى الله فليقرأ (التلمود) فإن فيه كلاما كثيرا لا أبيح لنفسى مجرد نقله، لأنه رجس من عمل الشيطان، وتعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

ولهذا سأبقى - فى ضوء القرآن الكريم - أنقل عنه، وأحاول توضيح الصور التى عرضها عن اليهود، وسوء أدبهم مع الله - وأكتفى من ذلك بموضعين :

أما الموضع الأول : فهو قول الله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء، سنكتب ما قالوا، وقتلهم الأنبياء بغير حق، ونقول ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم، وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ سورة آل عمران آية ١٨١.

يروى ابن اسحق فى سبب نزول هاتين الآيتين عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أبا بكر دخل على واحد من أحبار اليهود يسمى فنحاص وهو يتحدث إلى جماعة من اليهود، فقال أبو بكر : ويحك يافنحاص - اتق الله وأسلم - فو الله إنك لتعلم أن محمداً لرسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل - فقال فنحاص - يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير - وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغنى ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم - ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الربا (يشير بذلك إلى قول الله تعالى: ﴿**من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا - فيضاعفه له أضعافا كثيرة**﴾ سورة البقرة آية ٢٤٥ - فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربا شديدا وقال : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك آيا عدو الله - فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد انظر ما صنع بى صاحبك - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : ما حملك على ما صنعت؟ فقال أبوبكر : يا رسول الله - إن عدو الله قال قولا عظيما - زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، وضربت وجهه - فأنكر فنحاص وقال : ما قلت ذلك - فنزل قول الله تعالى : ﴿**لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير، ونحن أغنياء - سنكتب ما قالوا**﴾.. سورة آل عمران الآية ١٨١، ١٨٢ - إلى آخر الآيتين.

وفى الآيتين تصديق لأبى بكر، وبيان بأن الله مطلع على ما يقول اليهود ، وقد علم ما قالوا وسجله وكتبه عليهم، وعقابهم عليه ما ذكرته الآيتان : ﴿**ونقول ذوقوا عذاب الحريق، ذلك بما قدمت أيديكم، وأن الله ليس بظلام للعبيد**﴾ سورة آل عمران آيات ١٨١، ١٨٢.

وأما الموضع الثانى : الذى صور به القرآن سوء أدب اليهود مع الله فهو ما روى عن سعيد ابن جبير قال : أتى رهط من يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد هذا الله خلق الخلق . فمن خلق الله؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتقع لونه . (أى تغير) - ثم ساورهم - (أى واثبهم وباطشهم) غضبا لربه - قال

فجاء جبريل : عليه السلام فسكّنه - فقال : خفض عليك يا محمد، وجاء ه من الله بجواب ما سألوه : ﴿ **قل هو الله أحد - الله الصمد - لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد** ﴾سورة الإخلاص.

فلما تلاها عليهم قالوا فصف لنا يا محمد ، كيف خلْقه؟ كيف ذراعه؟ كيف عضده؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد من غضبه الأول وساورهم - فأتاه جبريل عليه السلام فقال له مثل ما قال له أول مرة - وجاءه من الله تعالى بجواب ما سألوه، يقول الله تعالى : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾سورة الزمر آية ٦٧.

وبعد - فليست هناك جريمة تفوق جريمة التطاول على الله، ومع ذلك فقد حدثنا القرآن الكريم عنها حديث السمو والرفعة، لم يخف الحقائق، ولم يستر الأقوال، ولم يترك السائل بدون جواب، والمخطئ بدون عقاب - فإذا ما عرفنا هذا الموقف من اليهود سهل علينا أن نفهم موقفهم من البشر، وأن نعرف الكثير عن هذه النفوس المريضة.

ويبقى جلال الله وكماله فوق ما تدركه البصائر والأفهام - ﴿ **وما قدروا الله حق قدره** ﴾ و﴿ **سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ سورة الزمر آية ٦٧.

جرائم اليهود :-

اليهود قتلة الأنبياء - وهذه حقيقة ثابتة، وجريمة انفردوا بها فى التاريخ بين الشعوب - ورذيلة تضاف إلى صحائف أعمالهم فتزيدها قبحا وسوادا، وتلطخ جبين كل يهودى بعار بالغ فى شناعته وقسوته، وجبنه ونذالته.

وحين نرجع إلى القرآن الكريم نجد تصويرا دقيقا لهذه الجريمة، فيه إشارة للأسباب، وفيه توضيح موضوعى للعمل الخسيس الذى ارتكبوه، وفيه تبيين للعقاب الذى ينتظرهم عند الله.

- فى سورة البقرة، يقول الكبير المتعالى: ﴿ **وضربت عليهم الذلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله - ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق** ﴾ سورة البقرة آية ٦١.

- ويقول : ﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا، ويكفرون بما وراءه، وهو الحق مصدقا لما معهم، قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين** ﴾ سورة البقرة آية ٩١.

- وفى سورة آل عمران يقول سبحانه : ﴿ **إن الذين يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ،فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ سورة آل عمران آية ٢١.

هذه الآيات تثبت الجريمة، وتثبت إصرارهم عليها - والتاريخ يروى أنهم قتلوا كثيرا من الأنبياء، وكرروا هذه الرذيلة القاسية فى عصور مختلفة، فهى طبيعة فيهم، وغريزة سوداء امتزجت بدمائهم، وأصبحت عنصرا من عناصر تكوينهم المادى والنفسى، ومؤثرا فعالا فى تفكيرهم ومشاعرهم :

لقد قتلوا (أشعيا) فى منتصف القرن الثامن قبل ميلاد المسيح.

وقتلوا (أرميا) رمياً بالحجارة حين أكثر من لومهم، وبالغ فى نهيهم عن المنكرات والمفاسد.

وقتلوا (يحيى) لأن ملكهم غضب عليه، وسبب الغضب أن يحيى لم يتح له أن يتزوج من ابنة أخته، وكانت بينهما غواية.

وقتلوا (زكريا) حين حاول الدفاع عن ابنه (يحيى) عليهما السلام.

وقتلوا (حزقيال) النبى - قتله أحد قضاتهم حين نهاه عن المفاسد والمظالم.

ثم زعموا أنهم قتلوا (عيسى) عليه السلام، وافتخروا بذلك، وكذبهم القرآن الكريم، لكنهم حين زعموا ، وحين افتخروا أثبتوا على أنفسهم نوع الجريمة، وهى ثابتة بالعزم والإصرار، ثم بالادعاء والافتخار، ولا يخفف منها أن الله نجاه منهم على الرغم من العزيمة والتصميم.

وأخيرا حاولوا قتل خاتم الأنبياء والرسل محمد صلى الله عليه وسلم فنجاه الله من كيدهم، وأعزه ودينه وصحبه وكتابه، وأعطاه القدرة عليهم فطردهم من جزيرة العرب، وتركهم للضياع والهوان.

- صورة من الجرائم لم تقع من شعب آخر، ولم يتقبلها ضمير بشرى غير ضمير اليهود إن كان لهم ضمير - ولقد أشار القرآن إلى تكرر الجريمة منهم حين قال : ﴿ **أفكلما جاءكم رسول بمالا تهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون** ﴾ سورة البقرة آية ٨٧ - والآية جاءت فى صيغة سؤال يحمل معنى التوبيخ والاستنكار لهذه الجريمة البشعة.

والمتأمل فى الآيات السابقة يرى أن القرآن يتحدث عن كفر اليهود قبل حديثه عن قتلهم الأنبياء ﴿ **ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق** ﴾ سورة البقرة آية ٦١. ﴿ **إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، فبشرهم بعذاب أليم** ﴾سورة آل عمران آية ٢١.

فأساس القضية هو الكفر، الكفر الذى طمس بصيرتهم، وحجب نور الحق عنهم، وأراهم الخير شرا والشر خيرا، فجاز لهم - بعد ذلك - فى شرعهم المقلوب، أن يقتلوا الهداة، ودعاة الخير والإصلاح.

والقرآن يقول : إنهم يقتلون النبيين بغير الحق، وقتل الأنبياء لا يكون بحق أبدا - فلماذا جاء هذا التعبير؟ جاء هذا التعبير ليبين أن قتل الأنبياء بعيد عن الحق الثابت فى الشرائع، وبعيد عن الحق المزعوم عند اليهود، أى أنهم لم يزعموا حتى حين قتلوا الأنبياء أنهم قتلوهم بحق - فقد كانوا يعلمون أنهم على الباطل، وأن عملهم فيه استهانة بكل المبادئ والحقوق.

ولما كان عملهم هذا عدوانا على مقام النبوة، ومخالفة لكل المبادئ والقوانين نسب الله إليهم قتل الأنبياء جميعا - لأن من قتل عددا من الأنبياء فكأنما قتل كل الأنبياء مادام مستهينا بالشرائع، وهذا كقوله تعالى : ﴿ **من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من**

قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ﴾ سورة المائدة آية ٣٢ - عملهم هذا عدوان على فكرة النبوة نفسها، وعدوان على مبدأ الإصلاح والدعوة إلى الله، ولهذا قتلوا المصلحين من غير الأنبياء.

﴿ **ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس** ﴾ سورة آل عمران آية ٢١ - فهو تصوير لما طبعت عليه النفس اليهودية من الانحراف والسوء،والضيق بفكرة الخير والنور، والبعيد عن السلام والأمان والصلاح والإصلاح للمجتمعات البشرية.

وبعد - فلن أطيل فى الحديث عن الجزاء - واكتفى بما قاله الصادق الأمين «أشد الناس عذابا يوم القيامة - رجل قتله نبى، أو قتل نبياً».

وبما قاله الله تعالى فى ختام الآيات التى قرأناها من سورة آل عمران : ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم ، أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة، ومالهم من ناصرين** ﴾ سورة آل عمران آيات ٢١، ٢٢.

حبهم للحياة : -

ونعود إلى القرآن الكريم باحثين عن صور أخرى للطبيعة اليهودية فنجد العجب الغريب، هؤلاء قوم يحبون الحياة أشد الحب، ويحرصون عليها كل الحرص، يتمسكون بها ولو كانت ذليلة ضائعة، ويتمرغون فى ترابها ولو كانت حقيرة تائهة، وحبهم للحياة يدعوهم للتمسك بها مهما كانت بعيدة عن الكرامة والشرف، ومهما لا قوا فى سبيلها من مهانة، وأراقوا من أجلها دم الوجوه.

﴿ **ولتجدنهم أحرص الناس على حياة، ومن الذين أشركوا، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر، والله بصير بما يعملون** ﴾ سورة البقرة آية ٩٦.

هكذا صور القرآن حبهم للحياة، وهكذا رسم لوحة الذلة والجبن، واللهفة على البقاء فى الدنيا مهما كان فيها من هوان وحرمان وضعة.

وتأمل يا أخى فى أسرار التعبير القرآنى :

لتجدنهم - فعل مؤكد، ومفهومه أنك حتما ستجد هؤلاء القوم على هذه الصفة القبيحة فى أى مكان بحثت عنهم، وفى أى زمان كان هذا البحث.

ثم هم أشد الناس حرصا على الحياة - هكذا - حرصهم على الحياة فاق حرص الناس جميعاً فى كل زمان ومكان.

ثم إن حرصهم هذا ليس حرصاً على الحياة الكريمة العزيزة، وإنما هو حرص على مجرد حياة أى (حياة) - بأى لون - وبأى شكل - وبأى صورة، فليس المهم هو نوع الحياة، وإنما المهم هو مجرد البقاء.

وإذا سرت مع ألفاظ الآية الكريمة وجدت تأكيدا للصورة فى قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ **يود أحدهم لو يعمر ألف سنة** ﴾ سورة البقرة آية ٩٦ - فكل واحد من اليهود يتمنى بكل ما يملك من مشاعر وأحاسيس أن يعيش أطول زمن ممكن، ألف سنة، عشرة آلاف سنة، لا نهاية للعد - وما ذكر القرآن هذا الرقم إلا لأنه نهاية لعدد كبير يتخيله الناس خيالا بعيد المنال، ولا يتصورون الوصول إليه حتى فى الأحلام والأوهام.

وفى الآية بعد ذلك - إشارة إلى سبب من أسباب حبهم للحياة - وهو خوفهم من المصير، إنهم يعرفون سوء العاقبة، لقد تعدوا على مقام الألوهية، وقتلوا الأنبياء، وأفسدوا فى الأرض، وفعلوا كل ذلك عامدين، والنهاية معروفة لهم، فهم يفرون منها، ويتمسكون بأى لون من ألوان الحياة.

لكن القرآن يردهم إلى صوابهم إن كان عندهم صواب فيقول :

﴿ **قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ سورة الجمعة آية ٨ - وقد وردت هذه الآية تعقيبا على زعمهم أنهم أحباب الله وأولياؤه، قال تعالى : ﴿ **قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين - ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم** ﴾ سورة الجمعة آية ٦، ٧ - أى بسبب ما قدمت أيديهم من جرائم - ﴿ **والله عليم بالظالمين** ﴾.

وحب اليهود للحياة كان سببا فى صفة حقيرة أخرى أصبحت عالقة بهم، وهى صفة الجبن. والهروب من القتال. وهى صفة طبيعية لمن يحب الحياة - إنه يفر من الموت، ولا يقاتل إلا عند الضرورة، ولهذا تمسك اليهود فى حروبهم بأن يقاتلوا من خلال الحصون والقلاع - هكذا كانوا قديما، وهكذا هم حديثا.

أما فى القديم فقد قال الله تعالى عنهم : ﴿ **لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة، أو من وراء جدر، بأسهم بينهم شديد ،تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾ سورة الحشر آية ١٤ - ولقد قاتلوا النبى من وراء الحصون والجدران، فلم تنفعهم هذه الحصون والجدران، ونصره الله عليهم.

وأما فى العصر الحديث فقد رأيناهم يقيمون القلاع والجدران على شاطئ القناة، وفوق صخور الجولان، ولكنها حين آن الأوان لم تغن عنهم شيئا، ثم رأيناهم يربطون جنودهم إلى الطائرات والدبابات بسلاسل الحديد حتى لا يفروا من الميدان، وصدق الله : ﴿ **تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى** ﴾ سورة الحشر آية ١٤.

إن تصوير القرآن تصوير حسى - فيه الدقة والأمانة والصدق، وها هى ذى الأحداث تثبت بعد آلاف من الأعوام أنهم أحرص الناس على حياة، وأنهم مهما فروا من الموت فإن الموت ملاقيهم، ولن يكون النصر حليفهم مهما طال الزمن.

﴿ **لن يضروكم إلا أذى، وإن يقاتلوكم، يولوكم الأدبار، ثم لا ينصرون** ﴾ سورة آل عمران آية ١١١.

تحايلهم على الشريعة وتلاعبهم بالدين :

إن المتأمل فى القرآن الكريم يرى تصويره لليهود ممتدا واسعا، يصور الماضى والحاضر والمستقبل، ويتناول طباعهم، وعاداتهم الفردية والاجتماعية، ويرسم أبعادا مختلفة للصورة، وظلالا متباينة تلوح فى جوانبها، وتتصل بالحرب والسلم، بالخير والشر، بالفكر والعمل، بالرأى والهوى. بكل الصفات البشرية على تنوعها وتباينها.

ونريد أن نعرض لصفة أخرى من صفات اليهود، هى «التحايل على الشريعة والتلاعب بالدين، والالتفاف حول حدود الله». وتظهر هذه الصفة الذميمة فى قصة أصحاب السبت التى ذكرها القرآن الكريم فى سور كثيرة، وخلاصتها أن الله تعالى أمرهم بأن يكون هذا اليوم يوم عبادة وطاعة، وحرم عليهم فيه الصيد وكل أنواع العمل، ثم أراد اختبارهم فأكثر من ظهور السمك فى البحر فى هذا اليوم، فكانوا ينظرون إلى الحيتان يوم السبت وهى تملأ البحر بجوار الشاطئ فتصيبهم بالحسرة والألم لأنهم لا يستطيعون صيدها، أما فى بقية أيام الأسبوع فإن الحيتان تختفى، ولا يجدون شيئا يصيدونه، وفكروا فى حيلة يخرجون بها على التعاليم فقالوا : نحفر أحواضا كثيرة على الشاطئ، فإذا كان يوم السبت وكثرت الحيتان فتحنا الأحواض فاندفع إليها الماء ومعه السمك فنحبسه إلى يوم الأحد ثم نصطادها، وقال جماعة منهم : هذا تحايل على الشرع، وعدوان على التعاليم، فلم يستمعوا إليهم ونفذوا ما عزموا عليه فكان جزاؤهم أن غضب الله عليهم، ومسخهم قردة، وصاروا مثلا يحكى على الأيام، وعبرة تروى على الزمان - وفى تصوير هذه القصة جاءت آيات كريمة من سورة الأعراف . قال تعالى : ﴿ **واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ، إذ يعدون فى السبت - إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون - وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم ، أو معذبهم عذابا شديدا ، قالوا معذرة إلى ربكم ، ولعلهم يتقون ، فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء . وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ، فلما عتوا عما نهوا عنه ، قلنا لهم كونوا قردة خاسئين** ﴾ . سورة الأعراف آيات ١٦٣ , ١٦٦ .

والخطاب فى الآية لمحمد صلى الله عليه وسلم، فالله تعالى يقول له : يا محمد اسأل اليهود من أهل زمانك عن أهل هذه القرية الذين يتحايلون على تعاليم الله، فإنهم يعرفون قصتهم، ويعرفون عاقبة أمرهم - وهو سؤال فيه معنى اللوم والتوبيخ لليهود - والقرية هى قرية أيلة على شاطئ البحر الأحمر، وتأمل يا أخى المسلم كلمة يعدون لترى كيف عبر القرآن عن عملهم بأنه عدوان، ثم تأمل كلمة (عتوا) فى قوله (فلما عتوا عما

نهوا عنه) لترى كيف صور القرآن فعلهم بأنه عتو أى مجاوزة للحدود المعقولة فى الاستكبار مع التجبر، والمبالغة فى ركوب المعاصى، والتمرد على أوامر الله سبحانه.

أما قوله تعالى : ﴿**فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين**﴾ سورة البقرة آية ٦٥ - فقد يكون المعنى على ظاهره، ومعناه حينئذ أن الله مسخهم فعلاً قردة، وقد يكون المعنى أن الله مسخ خلقهم، ومسخ نفسياتهم فأصبحت صورهم قبيحة مثل القردة، وصارت أفعالهم ونفوسهم شريرة، قال الإمام الألوسى : الأمر هنا أمر تكوينى لا تكليفى - فالله تعالى لم يكلفهم بذلك، وإنما أراد لهم أن يصبحوا قردة فكان ما أراد - فهو كقوله :﴿**إنما قولنا لشئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون**﴾ سورة النحل آية ٤٠.

وما كانت قصة السبت فى ذاتها لتستحق أن تروى لولا ما فيها من عبر، ومن إرادة لتصوير الأخلاق اليهودية، والطباع القائمة على التحايل والتلاعب بالشرائع السماوية - وفى ضوء هذا نستطيع أن نفهم لماذا قصها القرآن الكريم ، ولماذا كرر الحديث عنها فى آيات أخرى :

قال الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿**ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين، فجعلناها نكالا لما بين يديها، وما خلفها، وموعظة للمتقين**﴾ سورة البقرة آيات ٦٥، ٦٦ - فهى إذن الموعظة والعبرة للذين عبدوا الله واتقوه.

وفى سورة النحل بين القرآن أن العقوبة التى حلت باليهود كانت بسبب تعديهم على حدود الله وتعاليمه : ﴿**إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه، وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**﴾ سورة النحل آية ١٢٤ - ويؤكد هذا قوله تعالى فى سورة النساء : ﴿**يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت، وكان أمر الله مفعولا**﴾. سورة النساء آية ٤٧.

- ونحن يا أخى المسلم مطالبون بأن نأخذ العظة والعبرة من هذه الآيات، وبأن نتقبل أوامر الله، ونقف عند حدوده، ﴿**ومن يعص الله ورسوله، ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها، وله عذاب مهين**﴾ سورة النساء آية ١٤.

وبهذا نصحنا النبى الكريم صلوات الله وسلامه عليه حين قال : **(لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود ، وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل)**.

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه :

«قاتل الله اليهود - حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها».

حفظ الله علينا نعمة الدين، ومكن لتعاليمه فى قلوبنا، وهدانا بفضله إلى الصراط المستقيم.

اليهود هم اليهود :-

قد يظن بعض الناس أن الفكر اليهودى فكر معاصر، وأن المجتمع اليهودى تحكمه الآن روح الزمن الذى نعيش فى ظلاله، وأن طباع الغدر والتلون، ونقض العهود والمواثيق التى ظهرت مع أحداث الحياة اليوم إنما هى وليدة سياسة عصرية، أو رؤية للأوضاع السائدة فى العالم، أو فلسفة جديدة دعتهم إليها ظروف الحياة فى القرن العشرين ، قد يظن بعض الناس هذا، لكن الحقيقة أن يهود اليوم هم أبناء يهود الأمس، وأن العرق دساس، وأن أسلوب حياتهم الذى نراه إنما هو ميراث تناقلوه عن الآباء والأجداد - والقرآن الكريم يحدثنا أصدق الحديث عن هؤلاء اليهود، والآيات الكريمة التى نزلت على محمد صلوات الله وسلامه عليه منذ ألف وأربعمائة عام تقريبا شاهد صدق على أمرين - أولهما أن يهود اليوم هم أبناء الأمس، وثانيهما أن القرآن وحى من السماء - يقول فلا يقول إلا صدقا، ويتحدث فلا يروى إلا حقا، وينطق فلا ينطق إلا الحكمة، ولا يهدى إلا إلى الخير.

يقول اليهود اليوم إنهم عنصر ممتاز، وإنهم خلاصة لجماعة بشرية نقية، فضلها الله، وجعلها خاصة به - وهو قول تظهر فيه الأنانية القبيحة، والعنصرية البغيضة، وما كان الله ليخلق عبيده أصنافا، ثم يختار صنفا من بينهم يميزه بالحب والرعاية - إن مقياس التفضيل عند الله هو التقوى والطاعة.

تأمل يا أخى المسلم قول الله : ﴿ **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه - قل : فلم يعذبكم بذنوبكم؟ بل أنتم بشر ممن خلق - يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما، وإليه المصير** ﴾ سورة المائدة آية ١٨.

هى دعوى التمييز - ينفيها القرآن بحجة منطقية قوية - إذا كنتم تدعون أنكم أحباب الله ، وأن الله قد جعلكم أبناءه من دون الناس - فلماذا إذن يعذبكم بسبب الذنوب والمعاصى؟

إن المحب لا يعذب أحبابه، بل يلتمس لهم الأعذار - وإن الأب لهو الراحم لأبنائه يدفع عنهم المكاره، وإن الله حين ينزل بكم العذاب لا يفعل إلا العدل. ولا يضعكم إلا حيث يجب أن تكونوا - بشرا ممن خلق - لاميزة لكم على أحد، بل لعل فى التعبير ما يشير إلى شئ من تحقير. فمن أحسن منكم فله جزاء إحسانه، ومن أساء فعليه إثم الإساءة والملك لله وحده، يتصرف فيه بعدله، وإليه مصير الخلق أجمعين، وإليه ترجع الأمور .

- فما يدعيه اليهود اليوم هو ميراث قديم، وما يطبع سلوكهم من تلون ونفاق، ومن غدر وخديعة، ومن نقض للعهود وخروج على المواثيق، وبُعد عن الشرف - إنما هو نتاج تاريخ طويل طويل. وكيف لا؟ وقد نقضوا المواثيق مع الله : ﴿ **وإذ أخذنا ميثاقكم، ورفعنا فوقكم الطور، خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا - قالوا سمعنا وعصينا، وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم - قل بئسما يأمركم به إيمانكم - إن كنتم مؤمنين** ﴾ سورة البقرة آية ٩٣ - نعوذ بالله من سوء الضمير، ومن سوء التعبير، ومن سوء المصير - ﴿ **خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا - قالوا سمعنا وعصينا** ﴾. فهل بعد هذا عصيان وجهل وكفران؟

وقد أستطيع أن أدلل لك يا أخى المسلم على عمق هذه الطباع الفاسدة الظالمة فى نفوس اليهود وتاريخهم - حين أرجع بك إلى كتابهم المقدس - إلى التوراة التى حرفوها، وإلى سفر التكوين فيها لترى صدق ما أقول :

فى سفر التكوين قصة عجيبة وقعت بين (عيسو ويعقوب) - وَلَدَىْ اسحق بن ابراهيم - وفيها إثبات لفكرة الأنانية، والرغبة فى التميز، وحب الذات، والاعتماد على الخديعة والحيلة فى الوصول إلى الغاية.

وعيسو فى رواية التوراة هو بكر اسحق، وقد نشأ صيادا يعيش فى البرية، ونشأ أخوه يعقوب فى الحضر - وكان يعقوب هو المحبوب عند الأم لأن عيسو تزوج على غير رغبتها. وكانت بينها وبين زوجة ابنها عداوة وجفوة.

ويروى سفر التكوين هذا أن يعقوب طبخ طبيخا، وقدم عيسو من البرية تعبا جائعا، وطلب من أخيه أن يطعمه، فأبى يعقوب إلا بمقابل - وطلب منه أن يتنازل عن حقوقه باعتباره بكر أبيه - وقال عيسو : إنه صائر إلى الموت ولا حاجة له فى هذه الحقوق، وتنازل ليعقوب عنها، وحلف له على ذلك حتى أطعمه.

ليست هذه أسطورة من أساطير التاريخ القديم، لكنها حكاية ترويها توراة اليهود، وهى تعلمهم مبادئ فى غاية الخطورة.

تعلمهم أن صلة الأخوة لا قيمة لها، وأن الغاية تبرر الوسيلة، وأن الدين يبيح للناس كل الأساليب فى سبيل الذات والأهواء.

فأين هذا من تعاليم كتابنا؟ أين هذا من الأخوة الشاملة بين المؤمنين؟ - أين هذا من صلة الرحم التى نادى بها ديننا؟ - أين هذا من رسالة السماحة والتعاون والمحبة التى جاء بها محمد؟ - إن الفرق لكبير - وهو فرق بين السماء والأرض - بين رسالة من عند الله ، ورسالة من صنع البشر.

يارب أسألك أن تنصر الإسلام وتعز المسلمين وأن تعلى بفضلك كلمتى الحق والدين وانصرنا على القوم الكافرين

وصلَّ اللهم وسلم على سيدنا محمد.

والحمد لله رب العالمين

ثمار العلم

الحمد لله العليم الخبير

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له

وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وبعد..

علمتنا التجربة أن قيمة الشيء تظهر فى آثاره ونتائجه، ولقد يملك أحدنا مصدرا للثروة ويجهل طريقة استغلاله حتى إذا وقع فى يد غيره اكتشف أسراره، وأخذ ثماره، وحقق به كل ما يريد - وقد يمنح الله إنسانا ما عقلا ذكيا، وذهنا متوقدا لكن ظروف الحياة تحرمه نعمة التعليم فيبقى فى ظلمات الجهل على الرغم من هذا العقل الذكى والذهن المتوقد - وكم من رجل يعيش على هامش الحياة لو أتيحت له فرصة التعلم لكان مصدر نفع لنفسه وللبشرية - والحياة حظوظ.

لكن العلم وحده لا يخلق مجموعة متساوية فى الفهم والنفع والوقوف على حقائق الخير والرشاد قد تبذل النصح لغيرك، وتتيح المعرفة لألوان من الناس : أما بعضهم فينتفع وينفع، وأما الآخرون فيبقون كما كانوا كأنك لم تقل وكأنهم لم يسمعوا - وكم من زميلين التقيا على مقعد الدراسة، وتجاورا فى الاستماع إلى الأستاذ، أما أحدهما فيعى ويعرف، ويخرج إلى الدنيا فيملأ الأسماع والأذهان والقلوب، ويؤثر فى مجرى التاريخ - وأما الثانى فيضيع فى الزحام - وصدق الرسول العظيم «إنما أنا قاسم والله معطى» وصدق الله ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض** ﴾ سورة الرعد آية ١٧ - المعرفة المجردة لا تكفى، والعلم وحده لا ينفع، وإنما يجرى العلم ويثمر أطيب الثمار إذا لقى أرضا خصبة وعقولا واعية، وقلوبا متفتحة - ولقد وضح لنا الرسول ﷺ هذه الحقيقة فى حديثه الجامع : قال : «مَثَلُ ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً - فكان منها نقيةٌ قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير - وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس : فشربوا وسقَوا وزرعوا - وأصاب

منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تُمسك ماء، ولا تنبت كلأ - فذلك مثَلُ من فقُه فى دين الله، ونفعه ما بعثنى الله به فعلمَ وعلّم، ومثلُ من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبلْ هدى الله الذى أُرسلت به».

فى هذا التصوير الفنىّ الرائع يقدم الرسول ثلاثة أصناف من الناس أشرق عليها نور الرسالة الإسلامية، وجاءها غيث التعاليم المحمدية، فاختلفت الحظوظ وتنوعت :

أما الصنف الأول : فأهل الحق والنفع، وأقرب الأصناف إلى الله - أولئك الذين علموا - فعملوا ثم عَلَّمُوا. استنارت عقولهم بنور الله، وارتوت قلوبهم بغيث المعرفة المحمدية - فأقبلوا على نفوسهم الخصيبة يزرعون الخير، ويغرسون بذور المنفعة، فلما أثمرت - بعد تعب ورعاية - كان ثمرها شهيا جنيا فأقبل الناس عليه يقطفون ويأكلون - هؤلاء هم العلماء العاملون الناصحون : يهذبون أنفسهم، ويربون ضمائرهم، ثم يُقبلون على الناس بالنصح والتعليم والتوجيه - لا يضنون برأى، ولا يمنعون الناس نصيحة، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، فهم كالشجر الطيب، أصله ثابت، وفرعه فى السماء، يؤتى أكلُهَ كل حين بإذن الله.

وأما الصنف الثانى فجماعة من الناس يقبلون على العلم دراسة وفهما وتحصيلا، وتتسع جوانب معرفتهم، ويتسامع الناس بهم فيقبلون عليهم لينتفعوا بهذاالعلم - ولكنهم ينسون أنفسهم فلا يقدمون لها منفعة - وما أشبههم بالبحيرة التى يتجمع فيها الماء، وتصبح مثابة لكل ظامئ يردها فيشرب ويرتوى، وقد يحمل من مائها ما يريد إلى أرض بعيدة عاطلة من الزرع والثمر، فإذا هى بعد حين جنة من جنان الأرض، حاليةُ بالأزهار والبساتين وصدق الرسول الكريم «رب مبلغ أوعى من سامع».

وهؤلاء الناس أقل قيمة فى ميزان الخير والمنفعة - إن الذى ينقل العلم دون أن يفيد نفسه، أو يُهذب وجدانه، ودون أن يعمل بما علم يكون أقرب إلى الجهل - لكنه لا يصل إلى مرتبة الجاهل التى صورها القرآن المعجز فى حديثه عن اليهود الذين أنكروا تعاليم التوراة، وانفصلوا عنها بعد أن عرفوها فكانوا كما قال القرآن ﴿ **كمثل الحمار يحمل أسفارا** ﴾ سورة الجمعة آية ٥ - أما الذين صورهم الرسول فى حديثه فإنهم لا يفسدون الماء، بل يحتفظون به نقيا، ويقدمونه لغيرهم، فهم لا يغيرون الحقائق، ولا يبدلون المعارف.

أما الصنف الثالث فهم الذين انصرفوا عن دعوة الحق، وأنكروا الخير - رأوا النور فعميت عنه قلوبهم وأبصارهم - ونزل عليهم الغيث فتركوه يذهب فى جوانب الأرض، لم ينتفعوا هم، ولا نفعوا غيرهم - فهم كالأرض القيعان : لا تحفظ ماء، ولا تنبت ثمرا.

وقد نسأل أنفسنا :

ولماذا لم يذكر الرسول ﷺ فى تصويره الناطق هذا بقية ما يقتضيه التقسيم العقلى لأصناف الناس؟ ألا يوجد بعض الناس الذين يعبدون الله ويخشونه دون معرفة؟ أعمالهم كلها صالحة، وصلتهم بالله نقية - لكنهم يعبدون الله على غير معرفة، وليس عندهم علم ينقلونه لغيرهم.

وإجابة عن هذا السؤال أقول : لقد قصد الرسول البليغ إلى ذلك، وأهمل هذا الصنف من الناس عمدا، ليوضح لنا الحقيقة الكبرى : «لا تقوى بدون معرفة، ولا دين مع جهل، ولا يليق بالمسلم أن يعبد الله على غير أساس».

الجهل جريمة كبرى لا تقبل من المؤمن حتى ولو كان تقيا صالحا.

الرسول يريد منا أن نعرف - وأن نعمل بما نعرف، وأن نُقدم إلى غيرنا ثمار معرفتنا، ونتائج علمنا أما ما وراء ذلك من علم بعيد عن العمل - أو عمل يناقض العلم - أو عمل بدون علم فأمور يجدر بالمؤمن أن يبتعد عنها.

يأيها المسلم الكريم : كن كما أراد لك دينك - عالما عاملا نافعا.

كن مصباحا يستمد زيته من نور الحق، فينير، ويمتد ضوؤه إلى كل مكان.

﴿ **نور على نور - يهدى الله لنوره من يشاء** ﴾ سورة النور آية ٣٥.

فاللهم علِّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

دعوة إلى المعرفة

أحمدك ربنا حمد الشاكرين وصلاة وسلاماً على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا ومولانا محمد وأشهد أن لا إله إلا الله دعانا فى القرآن إلى التأمل والتفكر والتدبر والمعرفة وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وبعد..

فيأيها الناس..

إن القرآن يدعو إلى المعرفة - آيات ونماذج من هذه الدعوة - **دعوة شاملة للكون كله** - سقراط يدعو إلى معرفة النفس فقط دعوة إلى استخدام العقل - الأدلة الكونية ملموسة ولكنها متنوعة، هل توجد أدلة عقلية - الغاية من المعرفة .

لماذا ران علينا الجهل إلى الآن مع هذه الدعوة الصريحة؟

حظيت المعرفة بكل تقدير فى الدين الإسلامى الحنيف - فهى فيه الأصل والغاية - عليها تنبنى العقيدة، وإليها تنتهى كل آمال بعيدة المدى لا ترضى بشىء يقل عن شهود الحق تبارك وتعالى.

أول آيات الكتاب الكريم فيها دعوة واضحة إلى القراءة والعلم، وهما من أهم مصادر المعرفة ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق - خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم - علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ سورة العلق آيات ١ : ٥.

وكثير من آياته تجعل الكون كتابا مفتوحا، وتدعو إلى التأمل فيه، والبحث عن أسراره وعجائبه حتى تنتهى النفس المتشوقة إلى غاية تبنى عليها العقيدة، وتقيم دعائم الإيمان، والقرآن الخالد يوضح فى جلاء أن العالم لم يخلق عبثا ﴿ **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين - ما خلقناهما إلا بالحق** ﴾ سورة الدخان آية ٣٩ - واقرأوا معى هذه الآيات البينات على أنها نماذج من دعوة القرآن إلى التأمل فى الكون :

١ - ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب** ﴾ سورة آل عمران آية ١٩٠.

٢ - ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة - إن الله على كل شيء قدير ﴾ سورة العنكبوت آية ٢٠.

٣ - ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ﴾ سورة الروم آية ٢٢.

٤ - ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ سورة يونس آية ١٠١.

بل إن الخالق جلا وعلا ليدعو الناس إلى البحث فى أجزاء معينة من هذا الكون :

كالنجوم وأسرارها ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البرَ والبحر ﴾ سورة الأنعام آيه ٩٧ - والظل وحركة الشمس ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مدَ الظل، ولو شاء لجعله ساكنا - ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ﴾ سورة الفرقان آية ٤٥ - والنفس البشرية وما فيها ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ سورة الذاريات آية ٢١.

دعوة وراء دعوة يسوقها كتابنا المقدس داعيا إلى المعرفة بكل وضوح وجلاء.

وأحب أن ألقى ضوءا خفيفا على (المعرفة) فى الإسلام لنرى مقدار ما فيها من الكمال إذا وازنا بينها وبين غيرها من ألوان المعرفة التى عرفها المفكرون والفلاسفة.

١ - لقد دعا سقراط أبو الفلسفة اليونانية إلى المعرفة فقال (اعرف نفسك) - وكان يرى أن معرفة النفس تكفى - وهذا رأى تظهر ضآلته أمام (المعرفة) فى الإسلام - فهى معرفة عامة شاملة كاملة - معرفة تتناول النفس، والسماء والأرض، وحركة الفلك، وأسرار الرياح، معرفة تمتد إلى آفاق أبعد من أن يدركها مفكر إنسانى مهما اعتز به قومه.

٢ - والمعرفة شيء أكبر من الاعتقاد - ذلك لأن الاعتقاد إلهام شعورى ناشئ عن علل بعيدة عن إرادتنا تتكون من الوراثة والبيئة وعوامل كثيرة - أما المعرفة فاقتباس عقلى قائم على الاختبار والبحث والتأمل والتجربة - وإيمان العوام قد ينشأ عن (الاعتقاد) أما إيمان المؤمن الكامل الباحث فينشأ عن (المعرفة) - وقد تكتفى الأديان الأخرى بمجرد الاعتقاد - أما الإسلام فيريد معرفة حقيقية قائمة على النظر، وإعمال الفكر، واستخدام العقل - وبهذا تتكون أرقى أنواع الإيمان، أو أعلى درجات العقيدة.

٣ - اعتقاد الأمى إلهام أو بداهة أو فطرة - أما اعتقاد العالم الباحث فنظر وفكر - والفكر والبداهة لا يتعارضان - بل ينبعان من أصل واحد - ويكمل كل منهما الآخر - والمهم أن نعرف أن الدين الإسلامى لا يريد عقيدة الفطرة أو البداهة أو ما نسميه نحن اليوم (التقليد) - وإنما يريد عقيدة الفكر والبحث والمعرفة الصحيحة.

٤ - نَصيب الإنسان فى الوجود شاق ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى كبد** ﴾ سورة البلد آية ٤ - إنه يقاوم ما فى الكون من قوى تحيط به - فإذا انتصر عليها وصل إلى درجة أعلى من المعرفة - أما إذا قهرته فإنه يجد ينبوع السعادة فى أعماق نفسه هو - فى روحه - لأنه لا مثيل لهذه الروح الإنسانية فى قوتها - وفى إلهامها وفى جمالها - والإنسان كما صوره القرآن الكريم (قوة - مبدعة - متسامية - دائما تترقى من درجة فى الكمال إلى درجة أعلى :

﴿ **فلا أقسم بالشفق - والليل وما وسق، والقمر إذا اتسق - لتركبن طبقا عن طبق** ﴾ سورة الانشقاق آيات ١٦ : ١٩ - درجة بعد درجة من الرفعة، والسمو الروحى، والكمال الوجدانى - ووسيلتنا إلى ذلك كله إنما هى (المعرفة) .

أيها المسلمون - هذا هو ديننا - وهذه هى المعرفة التى يدعو إليها. فأين موقفنا منها؟ أين نحن من البحث والإدراك والتأمل؟

أين نحن من الكمال والتسامى وصعود الدرجات؟

ليتنا نعرف حقائق ديننا - ليتنا نؤمن بالبحث والتأمل - ليتنا نكون أهلا لما يدعونا إليه ديننا من العلم والمعرفة.

اَلْقَمَرُ - الْقلم - الْعلم - الْوَلد - الْبستان - الْوَالد - اَلشَّمْسُ - النورُ - الذَّهب - النّيل - اللَّيْل - النجوم.

فاللهم بصرنا بأمور ديننا ووفقنا لما فيه الخير والصلاح.

من آيات الله

(١) الليل والنهار

الحمد لله : نحمده ونستعينه ونستهديه ونسترضيه ونستغفره.

ونشهد أن لا إله إلا الله له فى كل شىء آية تدل على أنه هو الواحد وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور وأخذ بأيديهم إلى طريق الله المستقيم فصلاة وسلاماً دائمين متلازمين عليه إلى يوم الدين.

أما بعد : -

فالكوُن : كتاب مفتوح - سطورُه من نور وحكمة، وحروفه من علم ورحمة، وكلماته وحىٌ يتجدد، وحق مؤكد، ونبعٌ يفيض بالخير والمعرفة.

الكون صفحات : تطالع العيون والآذان، وتخاطب العقول والوجدان، وتتركُ العبد خاشعا أمام عظمة المعبود، قد لان منه الجماد، وتطامن منه الغرور، واعترف لله فاطرِ السموات والأرض بما يليق بجلاله من تقديس وتمجيد.

هكذا أراد الله من كونه، وهكذا أراد الله لخلقه، فعرض عليهم هذا الكتاب، صفحة بعد صفحة، وآيةً تتلو آية، وبيّنةً. تتبع بينة والعاقل من تأمّل وفكر ﴿**قل انظروا ماذا فى السموات والأرض، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون**﴾ سورة يونس آية ١٠١ - الكون آيات بعد آيات، وعلامات وراء علامات، ودلائل خلف دلائل، وبراهين تؤكد براهين :

وفى كل شىء له آيةٌ تدل على أنه الواحد

وعهدنا بالكتاب - أىِّ كتاب - ألا يقرأه إلا من تعلّم - أما كتاب الكون فمفتوح أمام كل عين، مقروء من كل إنسانٍ، حتى ولو كان أميا، أو لا يكاد يُبين - وعهُدنا بالكتاب - أىّ كتاب - أن يسعى إليه القارئ، وأن يبحث عنه الراغب، أما كتاب الكون فيسعى هو إلى الناس حيث كانوا ، ويعرض نفسه عليك، رغبتَ فيه أو رغبت عنه، بحثت عنه أو لم تبحث - وسبحانك يارب ، دعوت الناس إلى طاعتك، ودللتهم على طريقك، وأقمت عليهم الحجة، وجعلت البرهان القاطع قائماً فى كل نفس، واضحا فى كل عين، ثاقبا فى كل أذن، مدويا فى كل قلب، خفيرًا على كل طريق - فأمّا من آمن واتقى، وصدق بالحسنى، فقد

يسّرتَه لليسرى - وأما من ضلّ وغوى، وكذّب بالحسنى، فقد عمى عن الهدى - حتى إذا ما جاءك يوم القيامة أعمى، وقال : يارب لم حشرتنى أعمى وقد كنتُ بصيرا؟ قلتَ (وقولُك الحق) : ﴿ **كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى** ﴾ سورة طه آية ١٢٦.

أيها المسلمون : من رحمة الله بعباده أنه يعرض عليهم آياته فى صور متكررة دائمة، ليمنحهم فرصة بعد فرصة، وتمضى معهم الآية : تطالعهم كلما أشرق عليهم صباح، وتنبههم كلما نزل بهم مساء.

وما أعظم آيته الكبرى حين جعل الزمان قسمة بين ليل ونهار، وخلفة بين صباح ومساء، وتردُّداً بين ظلام ونور، ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين، فمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار مبصرة، لتبتغوا فضلا من ربكم، ولتعلموا عدد السنين والحساب، وكلَّ شيء فصلناه تفصيلا** ﴾ سورة الإسراء آية ١٢.

فالليل آية، والنهار آية ، واختلافهما آية.

وآية الليل مظلمة، وآية النهار مبصرة - وبضدها تتميز الأشياء

تطلع الشمس فتبدأ آية النهار : مشرقةً وضّاءة، مبصرة مثيرة، فيها الحياة والحركة، وموكب من جلال وبهاء وروعة، ودنيا تموج بالعمل والنشاط . وفى كلٍّ آية.

وتغرب الشمس فتبدأ آية الليل، مظلمةً ساكنة، داجية هامدة، فيها هدوء وسكون وراحة، ودنيا من الرهبة والخشية - وفى كلٍّ آية.

وبين الليل والنهار يتجدد الإنسان : فى نفسه وغذائه - فى عقله ويقينه - فى معرفته وعلمه - ويعرفُ من أسرار الكون ما يريده له الله. ولهذا قال سبحانه ﴿ **ولتبتغوا من فضله** ﴾ سورة الإسراء آية ١٢ وقال سبحانه ﴿ **ولتعلموا عدد السنين والحساب** ﴾ سورة الإسراء آية ١٢.

وهذه الآية الكبرى موضع اهتمام خاص فى القرآن الكريم، وحسبنا أن نذكر هنا بعض ما يشير إليه فى توضيح وبيان :

أ - الليلُ والنهارُ نظام فيه الرحمة، وفيه تتحقق مصالح العباد فى معاشهم، وفى معادهم، وفى أبدانهم وأحوالهم : يقول الله تعالى : ﴿ **ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه، ولتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون** ﴾ سورة القصص آية ٧٣ - وهذه الآية تعقيب على قوله سبحانه ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة - من إله**

غير الله يأتيكم بضياء - أفلا تسمعون - قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة - من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه - أفلا تبصرون ﴾سورة القصص آية ٧١، ٧٢.

ب - وكل ما يتم فى عملية الليل والنهار وتعاقبهما على نظام محكم وقدر معلوم إنما هو دليل القدرة والعظمة:

﴿ يكور الليل على النهار، ويكور النهار على الليل ﴾ سورة الزمر آية ٥.

﴿ فالق الإصباح، وجعل الليل سكنا - والشمس والقمر حسبانا، ذلك تقدير العزيز العليم ﴾سورة الأنعام آية ٩٦.

﴿ يولج الليل فى النهار، ويولج النهار فى الليل ﴾ سورة فاطر آية ١٣.

﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها، ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ سورة يس آيات ٣٧، ٣٨.

﴿ يقلب الله الليل والنهار - إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾سورة النور آية ٤٤.

وليس من الغريب أن تنال هذه الآية الكبرى عناية القرآن، وأن تتردد فى هذا النسق المحكم، وأن تُعرضَ فى هذه الصور الغريبة البليغة، ولكن هل نحن سامعون؟ - وهل نحن مبصرون؟

ما أحوجنا إلى أن نقف أمام آيات الله فى كونه، فنتأمل ونبصر، ونفكر ونعقلَ ونستجيبَ لدعوة الله ، ونرجعَ إليه قائلين كلما طلع صباح : (الله أكبر) - وقائلين كلما حلّ مساء (الله أكبر)، وقائلين كلما اختلف ليلٌ ونهار : (الله أكبر).

(٢) خلق السموات والأرض

وآياتُ الله فى كونه لاتنتهى، يعرضُها - سبحانه - علينا فى الآفاق، ويعرضها - سبحانه - فى أنفسنا ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق، وفى أنفسهم - حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾سورة فصلت آية ٥٣.

وتأملوا (أيها المسلمون) معى آيتين من آيات الله فى كونه، يحدثنا القرآن الكريم عنهما فيقول : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض - واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن فى ذلك لآيات للعالمين ﴾ سورة الروم آية ٢٢.

أما الآية الأولى فهى «خلق السموات والأرض» - والمراد بالسموات والأرض هذا الكون بما فيه من آفاق واسعة، وأسرار متعددة، وكائنات متباينة، أو متشابهة، وأفلاك

سيارة، ونجوم دوارة ، سماء ذاتُ أبراج، وأرضٌ ذاتُ وهاد وفجاج - ونجوم تشرق وتغرب، وعَوالِمُ سابحة فى الفضاء الرحيب، لكل منها مدار معلوم، وخط مرسوم - عرفنا منها القليل ، وجهلنا منها الكثير ﴿ **لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار، وكل فى فلك يسبحون** ﴾سورة يس ٤٠

سماءُ محكمة، لا حدود لأبعادها، ولا نهاية لامتدادها، ولا أعمدة لحفظها، ولا شقوق تعيبهُا . ﴿ **ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه** ﴾ سورة الحج آية ٦٥ - وكل ذلك تصوير لهذا الفضاء العميق البعيد يُرينا ما فيه من إبداع وإحكام. وأرضُ تراها العين مبسوطة، وقد خلقها البارئ مستديرة مدحوة ﴿ **والأرض بعد ذلك دحاها - أخرج منها ماءها ومرعاها** ﴾ سورة النازعات آيات ٣٠، ٣١ - وجعلها مأوى للإنسان، منها بدأ، وإليها يعود - ﴿ **منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ سورة طه آية ٥٥ - وصدق الله ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب** ﴾سورة آل عمران آية ١٩٠.

ولقد عبرّ التنزيل الحكيم عن خلق السموات والأرض فى تفصيل عجيب غريب حين قال سبحانه من قائل فى سورة فصلت : ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين، وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين - وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين، ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض : ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين، فقضاهن سبع سموات فى يومين، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح ، وحفظا - ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ سورة فصلت آيات ٩ : ١٢.

والمقصود من هذا التصوير الغريب، أن يرينا عجيب صنع الله فى حدود قدرتنا على الفهم والإدراك، وأن يرْدَعَ المنكرين الذين يجعلون لله أندادا وهو الخالق لكل شىء سبحانه (ذلك رب العالمين).

وليس المرادُ تحديد أيام معينة كما يوحى بذلك ظاهر التعبير، إنما هو تصوير لطريقة الخلق والتكوين فى حدود يدركها العقل البشرى - وإنما هو هداية للناس حين يعملون - وإلا فالخالق القدير لا يحتاج إلى أيام آو ساعات أو لحظات تقل أو تكثر - إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، فهو فوق الزمان والمكان، وقبل الزمان والمكان، وبعد الزمان والمكان - سبحانه هو الذى خلق الأيام والزمان والمكان.

والله حين خلق الأرض - أحكم صنعها، وجعل فيها رواسى وأنهارا وسبلا، وأدارها فى الفضاء متزنة ثابتة، لا خلل يعتريها، ولا اضطراب يصيبها، وقدر فيها الأرزاق، وجعلها مصدر البركة والنماء، وسبحان الله، ملايين من الناس، وملايين من الكائنات، تأتى وتمضى، وكلها تطعم من خيرات الأرض ولانهاية ولا نقصان.

والله حين خلق السماء قال لها وللأرض قول إرادة كونا فكانتا طائعتين خاضعتين، وجعل فضاء السماء طبقات بعضها فوق بعض بلا حدود أو عدد - ووضع فى كل طبقة وحيَه وأمره، وزيّن سماء الدنيا بكواكب مزهرة ونجوم مضيئة ﴿**ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين**﴾سورة الملك آية ٥.

والعلم الحديث يقف بنا اليوم على عتبات آفاق جديدة تحيط بهذا الكون، وتكشف عن عجيب صنع الله، وعظيم إبداعه، إن الكون المعروف لنا بكل ما فيه من كواكب ونجوم وأجرام لا يعدو أن يكون ذرَّةً واحدة فى كون أكبر تملأه ملايين الذرات الأخرى، كل ذرة فيه عالم يماثل عالمنا هذا - وتمتد الصورة إلى حدّ يفوق تصور البشر، ويقف خيال الإنسان عند غايات تصوره موقف العجز والقصور.

ولا عجب ولا دهشة - فكّل ما عرفناه عن الكون حتى اليوم، وكل ما سنعرفه بعد اليوم يؤكد ما وراء هذه الآية الكبرى من إعجاز وإحكام - نعم لاعجب ولا دهشة - فإنه من صنع الله الذى أتقن كل شىء .

(٣) اختلاف الألسنة والألوان

ونقف عند النصف الثانى من القول الحكيم لنجد فيه علامة ثانية من علامات القدرة، ودليلا على وَحدانية الله، وتفردِه والإبداع - نقف عند قوله ﴿**واختلاف ألسنتكم وألوانكم**﴾سورة الروم آية ٢٢.

أما اختلاف الألسنة : ففيه ما فيه من أسرار الحكمة الإلهية - ذلك أن (اللسان) له فى اللغة كثير من المعانى، يستقيم منها فى هذه الآية ثلاثة معان.

المعنى الأول : (اللسان) هو اللغة : قال تعالى : ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه**﴾ سورة إبراهيم آية ٤ - أى إلا وهو يتحدث بلغتهم، فهو يفهمهم، ويفهمونه، وإلاّ لا نتفت حكمة الرسالة، وبخاصة رسالة محمد التى تعتمد على كتاب فيه من أسرار اللغة وبلاغتها كلُّ معجز - وقال تعالى : ﴿**فإنما يسرناه بلسانك**﴾ سورة الدخان آية ٥٨ - أى جعلنا القرآن باللغة العربية فيسرنا على العرب قراءَتَه ومعرفةَ بعضِ ما فيه من حجج

ودلائل - وفى حدود هذا المعنى نجد لغات لا حصرلها تمتد الآن على رقعة الأرض حتى ليكاد الحصر يعجز عنها - فإذا ما أدخلنا (اللهجات) فى إطار هذا المعنى وجدنا تنوعا يزداد حتى نجدَ فى اللغة الواحدة آلافا من اللهجات تكاد تجعل لكل قرية، أوحّى من قرية لهجةً متميزة - واختلاف اللهجات غير محصور فى لغة من اللغات - ولا فى زمان من الأزمنة، ولا فى مكان من الأمكنة، وبهذا يدخل فى التقدير مامضى وما سيأتى من لغات ولهجات.

المعنى الثانى لكلمة (اللسان) الحجة - يقال فلان ينطق بلسان الله أى بحجته - وعلى هذا المعنى يكون اختلاف الناس فى القدرة على التعبير، وسوقِ الأدلة والبراهين آيةٌ من آيات الله حين يجعل الشقيقين على طرفى نقيض - أحدهما يملك ناصية البيان، والثانى أبكمُ لا يكاد يُبين وقد رضَعَا من ثدى واحد، وسبحان مقسم الحظوظ.

وثالث المعانى لكلمة (اللسان) هو خصائص الصوت، ودرجات الحدَّة ، واختلاف الطبقات والنبرات فيه - فإن قيل إن كلَّ ذلك ينتُج من عدة أجهزة فى الفم والحلق. قلنا ولكن (اللسان) هو المعبر الحقيقى عن هذا الصوت، ولهذا جاز أن يراد من كلمة (اللسان) كلُّ هذه المعانى على وجهٍ من الحقيقة أو المجاز فى اللغة.

والمعجز فى هذه الناحية - أن العلم الحديث يثبت بالأدلة المادية، أن لكّل صوت نبرةً خاصةً به، وهذه النبرةُ لا تتكرر لشخصين فى العالم، فلكل إنسان طريقته الخاصةُ التى يستخدم بها جهازه الصوتى - ولذلك فإن النغمة التى تصدر عنه - والرنين الذى يحدثه عندما ينطق كلمةً معينة لا يمكن أن يصدُر عن نفس الكلمة حين ينطق بها شخص آخر. وبهذا تبرز القدرة الإلهية فيما يسمى اليوم (بصمات الصوت) إلى جانب ما كان معروفا من قبل باسم (بصمات الأصابع) التى تختلف من إنسان إلى إنسان حتى تصبح أمرا خارقا للمعقول، وهل فى استطاعة العقل أن يدرك حدود هذا الإعجاز الإلهى فى بصمات الأصابع وبصمات الأصوات؟.

إنما يهمنا فى هذا المجال أن القرآن الكريم حدثنا عنها قبل مئات السنين من معرفة العلم الحديث فقال : (واختلاف ألسنتكم) - وقال ﴿ **بلى قادرين على أن نسوى بنانه** ﴾ سورة القيامة آية ٤ - وصدق الله، وصدق كتابه الكريم.

وأما اختلاف الألوان : فآية أخرى من آيات الله فى كونه - يقف الناسُ فيها عند حدود فيقولون : هذا أبيض، وهذا أسود - وهذا أحمر وهذا أصفر - ونريد أن نمضى فيها إلى أبعد الحدود فنقول :

إن الاختلاف فى (الألوان) لا يقف عن الحمرة والصفرة ولا السواد والبياض، وإنما يمتد إلى كل تفصيل فى خلقة الإنسان، لأن (اللون) في اللغة كما يطلق على صفة الجسم من السواد والبياض وغيرها - يطلق أيضا على النوع - وفى حدود هذا المعنى نجد الناس ألوانا وأنواعا.

وتأملوا - أيها الموحدون - هذه الرقعة الصغيرة التى نعرفها فى كل إنسان باسم «الوجه» - هل ترون وجها فى الكون يشبه وجها آخر إلى حدّ المطابقة التامة؟ حتى التوأم وقد نبتا من خلية واحدة يخرج وجه أحدهما وفيه بصمة اختلاف عن وجه قسيمه - ومهما امتد الزمان بالناس، ومهما كثرت وجوه الملايين من خلق الله فلن تجدَ وجهين يحملان صورة واحدة، على ضيق المساحة وقلة التفَاصيل أو كثرتها.

وأدق من ذلك دلالة على عظمة الخالق أن هذا الاختلاف يمتد إلى كل عضو من أعضاء هذا الوجه - إلى العينين والشفتين - إلى الأنف والوجنتين - وكثيرا ما يستدل الناس على شخصية إنسان من صورة محدودة للشفتين أو العينين - وسبحان من خلق فأبدع - وصوّر فأحسن.

وصدق الله العظيم : ﴿ **يأيها الإنسان - ما غرك بربك الكريم الذى خلقك، فسواك، فعدلك - فى أى صورة ما شاء ركبك** ﴾سورة الانفطار آيات ٦ : ٨.

(٤) الأرض الميتة تحيا

ما أروع القرآن وهو يُحدثنا عن آيات الله، وما أعظم الحكمة التى يسوقها حين يضربُ الأمثال، ويوضحُ الدلائل ويقدّم البراهين - اقرأ معى قول الله تعالى : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم، وآية لهم الأرض الميتة أحييناها، وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب، وفجرنا فيها من العيون، ليأكلوا من ثمره - وما عملته أيديهم - أفلا يشكرون** ﴾سورة يس آيات ٣٣ : ٣٥.

هذه آية من آيات الله فى كونه ترينا كيف تكون الأرض ميتة لا زرع فيها ولا ضرع - قد همدت عناصر الحياة فى ترابها، وبدت غبراء جرداء، قاحلةً موحشة، ثم يأتيها الماء منحةً من واهب الحياة - فإذا هى تتحرك، وتنبض، وتهتز، وتزدان بالنبات، وتتلون بالأزهار والثمار - قد غذّاها الخير، فنمت وربَتْ، وأصبحت متعةً للعين، وبهجةً للنظر، ومصدراً للرزق الوفير ﴿ **وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج** ﴾سورة الحج آية ٥ - ﴿ **سبحان الذى خلق الأزواج كلها - مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم، ومما لا يعلمون** ﴾سورة يس آية ٣٦.

والقرآن الكريم يعرض هذا المعنى فى كثير من الصور التعبيرية ليُنَبّه الأذهان إلى كمال القدرة الإلهية، وإلى عمق الدلالة المختفية وراء هذا المظهر على الرغم من أن العيون قد ألفته فى كثير من مظاهر الكون.

أ - قال الله تعالى : ﴿ **ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا، وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها - إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾سورة الروم آية ٢٤ - فماء السماء يحيى الأرض الميتة - وهو بذلك آية لمن أراد أن يتأمل أو يعقل.

ب - وقال سبحانه من قائل : ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت، فأنزلنا به الماء، فأخرجنا به من كل الثمرات - كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** ﴾ سورة الأعراف آية ٥٧ - فالرياح تسير بقدرة القدير، وهى بشير برحمته فتسوق السحاب الثقيل إلى الأرض الميتة فتمنحها الحياة - وتمنح أهلها ألوانا من الثمرات - وهذا فى جوهره نموذج لكيفية عودة الحياة إلى الموتى فى قبورهم يعيها من يتعظ، ويفهمها من يتدبر - ولن ننسى أن نشير إلى جمال التعبير الذى جعل الرياح تقل السحاب على الرغم من ثقله، وجعلها بشيرا برحمة الرحيم - ودليلُ البشارة والرحمة أنها تتجاوز بلادا وبلادا ثم تقف حيث تريد الرحمة - وحيث يحتاج الميت إلى الحياة، وحيث تكون كل الثمرات دليلا على الرحمة، وتحقيقا للبشارة.

جـ - وقال عزّ من قائل : ﴿ **أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم- أفلا يبصرون** ﴾ سورة السجدة آية ٢٧ - والأرض الجرز هى الأرض التى لا يصلح لها ماء المطر - بل قد يضُرّ بها - ولهذا يأتيها الماء سائلا جاريا على وجه التربة من مكان بعيد - هذه أرض مصر لا يصلح لها ماء المطر، وإنما تحتاج إلى الماء سيلا جاريا، ولهذا حملته لها عناية الرحمن من جبال الحبشة فجعلتها جنة وارفة الظلال، دانية الثمار.

ونحن إذا تأملنا الفرق بين طريقة وصول الماء فى الآيتين وجدنا - رحمة الله حقا وراء كل شىء - فالآية الأولى تتكلم عن الماء ينزل بنفسه على الأرض فيحييها، ولهذا كان التعبير ﴿ **حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء** ﴾ سورة الأعراف ٥٧ - فالسوق هنا للسحاب - سقناه - أى سقنا السحاب حتى إذا أصبح فوق الأرض المقصودة نزل به الماء - أما فى الآية الثانية فالله يسوق الماء نفسه، أى يجريه على وجه الأرض بعد أن نزل من السماء بعيدا عن الأرض المقصودة - يقول سبحانه - ﴿ **نسوق**

الماء إلى الأرض الجرز﴾ سورة السجدة آية ٢٧- وقد قلنا : إن الأرض الجرز فى اللغة هى التى لا يصلح لها ماء المطر - فهل كنا ندرك هذا الفرق المقصود فى التعبير القرآنى المعجز؟

وإن المتأمل فى هذه الصور التعبيرية يراها تهدفُ إلى غاية سامية هى تذكير العباد بنعمة الله، وهى دعوتهم إلى التأمل والتفكر فى آلائه - ومع ذلك ففى كل صورة دلالة جانبية على لون مختلف من ألوان القدرة، أو ناحية مغايرة من نواحى الدلالة.

والحقيقة الكبرى التى تطلع من وراء هذه الآية الكونية تظهر حين نتأمل البذرةَ الصغيرة تُوضع فى الأرض جنينا، صامتا، ضئيلا، فاقد الدلالة على أسراره - ثم ينزل عليه الماء فإذا هو بعد حين حياة تتحرك وتنمو، وتنفلق عن سّر الوجود ﴿إن الله فالق الحب والنوى - يخرج الحى من الميت، ومخرج الميت من الحى﴾سورة الأنعام آية ٩٥ - ثم تتكشف هذه البَذرة الصغيرة عن سرّ جديد حين تشق طريقها فى الصخر بقوة جبّارة ساحقة لا تناسب هذا العود الغض الطرىّ - وكأنى بالسّر كله يتجمع فى هذا العود الأخضر اللين يفلق الصخر الأصم، وينبثق بقوة الحياة فى جماد الموت والعدم، ويخرج إلى الدنيا يُغالب الحرّ والبرد، ويجُالد الأعاصير وعوامل الفناء لأن من ورائه إرادةً غالبةَ، وقُوةً قاهرة تقول للشىء كن فيكون.

وتزيد الدلالة، وتبرز العظمةُ الباهرةُ حين نرى تُربةً واحدة يسقيها ماء واحد ، ويُشعُّ عليها ضوء واحد، ويلقحها هواء واحد - ومع ذلك تَنْبتُ فيها زروع مختلفة الأشكال والألوان، مُتباينة الطعوم والروائح، متعددة الأحجام والأنواع - وجلّت قدرة الله، وصدق كتابه الكريم : ﴿وفى الأرض قطع متجاورات، وجنات من أعناب، وزرع ونخيل صنوان، وغير صنوان، يسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل - إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾سورة الرعد آية ٤.

نعم - إنها آياتُ وآياتُ - ولكن : لقوم يعقلون.

والحمد لله رب العالمين.

حديث القمر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه

وبعد..

شغل الناس فى هذا العصر بالقمر، فهو اليوم يمثل فكرة التطور العلمى، ويرتبط فى الأذهان بعظمة العقل البشرى، وبإنجازات العلماء والمفكرين.

ومن قبل شغل الناس بالقمر، أثار خيال الشعراء والأدباء، وارتبط فى الأذهان بليالى الهوى، وأحاديث السمر، يرعاه السامرون، ويناجيه الساهرون.

كان للقمر دائما حديث - كان فى الخيال حُلما ومتعة، وتصوره الشعراء زورقا من فضة يسبح فى بحر من لازورد، قد أثقلته حمولة من عنبر. ثم أصبح فى حقيقة العلم أرضا من صخر وطين، وفُوّهات وبراكين، ورمالٍ وجبال تداعب خيال العلماء فى أن يصير مصدر ثروة للإنسان. هذا هو حديث القمر بين القديم والحديث - بين الفن والعلم - بين الخيال والحقيقة - فهل للقمر حديث فى الدين ؟ وهل له من ذكر فى كتابنا الكريم؟

يا أخى الكريم .

تحدث القرآن الكريم عن القمر فى كثير من الآيات، وفى حديثه عنه عِبَرٌ وعظات.

قال الله تعالى : ﴿ **يسألونك عن الأهلة. قل هى مواقيت للناس والحج.** ﴾ سورة البقرة آية ١٨٩ - وسبب نزول هذه الآية أن الناس سألوا النبى ﷺ عن الأهلة، وكيف تتغير مواقعها وأحجامها وأشكالها فى السماء فنزلت هذه الآية. وفيها فائدتان عظيمتان.

الأولى : إجابة عن السؤال فى حدود القدرة العقلية فى هذا الزمان، ولهذا لم توضح الآية السبب العلمى لهذه الظاهرة، وإنما بّينت الفوائد التى تعود على الإنسان من هذا التغيير - فالله قد جعل للقمر مراحل، ورسم له خطا تراه العيون حين يسير فى الفضاء حتى يعرف الناس المواقيت، ويقيسون الزمن - واكتشافُ الإنسان للزمن وأبعاده شىءٌ

عظيم له أكبر الأثر فى تاريخ البشر. عن ابن عمر قال : قال رسول ﷺ : «جعل الله الأهلة مواقيت للناس، فصوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غُمّ عليكم فعدُّوا ثلاثين يوما».

وقال العلى القدير : ﴿ **والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل فى فلك يسبحون** ﴾ سورة يس آيات ٣٩ : ٤٠ - قال : ﴿ **هو الذى جعل الشمس ضياء، والقمر نورا، وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب** ﴾ سورة يونس آية ٥ - فللشمس ضياء، وللقمر نور، ولها طريق معلوم، وله خط مرسوم، ولكل منهما وقت محدود فى ظهوره وغروبه، ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل، وجعلنا آية النهار مبصرة، لتبتغوا فضلا من ربكم، ولتعلموا عدد السنين والحساب، وكل شىء فصلناه تفصيلا** ﴾سورة الإسراء آية ١٢.

فالقمر على هذا هدية من الله لعباده، ومنحة يعرفون بها الزمان، ويقدّرون الأوقات، ويخُططون للأعمال ﴿ **ما خلق الله ذلك إلا بالحق، يفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾سورة يونس آية ٥

هذه إحدى الفائدتين اللتين عرفناهما من قوله سبحانه : ﴿ **يسألونك عن الأهلة، قل هى مواقيت للناس والحج** ﴾ سورة البقرة آية ١٨٩.

أمّا الفائدة الثانية : فهى أن الله سبحانه يعلمنا أن للمعرفة حدودا، وأن للعقل البشرى قدرةً، وأنَّ على الإنسان أن يسأل عما يستطيع فهمه وإدراكه - أما ما لا يستطيع الإحاطة به فلا داعى للسؤال عنه قبل أوانه. لقد سأل الناسُ عن الأهلّة نفسها - كيف تتغير ؟ وكيف تتكون؟ وما السرّ فى هذه المراحل؟ وأجاب القرآن، فبيّن الفوائد، وعلَّم الناسَ كيف يسألون.

ومن حديث القمر فى القرآن أنه آيةٌمن آيات الله، وعلامةٌ على قدرته وعظمته، وهو قرين الشمس. يُذكرُ معها حين تُذكر، ويُعرف فضلُه حين تعرف فوائدها، وهما معا جزء من هذا الكون الكبير، والملكوت الذى لا نهاية له - ليل داج، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج، وشمس تشرق كل صباح، وتمضى فى موكب من بهاء وجلال حتى تختفى وراء الأفُق البعيد - وقمرٌ يلوح فضيًّا لامعا، يهدى السائر، ويرشد الحائر، ويعوض الناس من ضوء الشمس قليلا أو كثيرا، ولكل منهما طريق مرسوم : ﴿ **وهو الذى خلق الليل والنهار، والشمس والقمر - كل فى فلك يسبحون** ﴾سورة الأنبياء آية ٣٣.

فهو النظام المحكم، والتدبير المتقن، والقدرة الباهرة، والصنعة البديعة البالغة، يمضى الزمان ما يمضى، ويُشرق صَباح، ويأتى بعده مساء، وكل شىء فى إطاره، كما أراد له الله ﴿ **لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون** ﴾سورة يس آية ٤٠ - فسبحان العلى القدير.

كان للقمر دائما حديث - كان حديثَ الشعراء والأدباء - ثم كان حديث العلماء - ومن قبل كان حديث القرآن الكريم.

تحدث القرآن عن القمر فبين قيمته فى معرفة الزمان، وحساب السنين : ﴿ **هو الذى جعل الشمس ضياء ، والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب** ﴾سورة يونس آية ٥ - وتحدث القرآن عن القمر، فصوره آية من آيات القدرة الإلهية، له أوقات معلومة، ومراحل مرسومة، وأنه مع غيره من الكواكب والنجوم ﴿ **وكل فى فلك يسبحون** ﴾ سورة يس آية ٤٠ - وتحدث القرآن عن القمر فى سورة النحل فقال : ﴿ **وسخر لكم الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره - إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾سورة النحل آية ١٢.

وبهذه الآية وضح القرآن وضعا جديدا للقمر، ووَجّهنا وجهة جديدةَ فى معرفته، فالقمر مسخّر لخدمة الإنسان، ومخلوق لفائدته ومنفعته - وعلى الإنسان أن يستغل هذا القمر كما يستغل غيره من مخلوقات الله التى أعَدها وسخّرها لخدمة الإنسان، وهذا هو مدلول قوله تعالى ﴿ **سخر** ﴾.

وتسخير القمر لخدمة الإنسان يحمل معنيين كبيرين:

أولهما : تكريمُ الإنسان : ووضعُه فى مكان السيادة والسيطرة فى هذا العالم، وعلى المسلم أن يكون حيث أراد الله له : سيادةً وعزةً، وسيطرةً على الكون - ويكفى فى حدود هذا المعنى أن الله جعل الإنسان خليفة فى الأرض.

وثانيهما : الدعوة إلى البحث، والدعوةُ إلى معرفة هذا الكون - معرفة ما فيه من قمر وشمس، ومن نجوم وكواكب، ومن بحار ورمال - ومن فضاء له حدود أو ليس له حدود - إنك لا تستطيع أن تسيطر على شىء إلا إذا عرفته، ولا تستطيع أن تنتفع بشىء إلا إذا أدركت كل ما يحيط به - ومن هنا لا تستطيع أن تنتفع بالقمر إلا إذا عرفت القمر، ولن تعرف القمر إلا إذا ذهبت إليه، وكشفت عن أسراره - وكأن القرآن

بهذا يدعونا إلى البحث عن أسرار الكون - عن الليل والنهار - عن الشمس والقمر - عن البحار والأنهار - عن الفضاء وما وراء الفضاء أليس ذلك كلهُ مسخرًا لنا ؟ أليس مخلوقا لمنفعتنا وفائدتنا؟.

فهل فعلنا ما أمرنا به ربنا؟ وهل استجبنا لتوجيه القرآن، فركبنا الفضاء وذهبنا إلى الكواكب، ووضعنا القمر وغيره فى خدمتنا؟

الواقع المؤلم أننا تخلفنا وتقدم غيرنا - تراجعنا وتخاذلنا وتركنا غيرنا يسعى بالعلم وبالعمل - ومن العجيب أن يكون بيننا اليومَ من ينكر حقيقة وصول الإنسان إلى القمر - وديننا هو أول دين يأمر بالسعى فى الكون، والبحث عن الأسرار، وحتى لا نتركَ فى النفوس شكا - نقرأ هذه الآياتِ من كتاب الله ففيها الحديث الواضح عن القمر، وعن تسخيره لخدمة الإنسان : قال تعالى فى سورة إبراهيم : ﴿ **وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار** ﴾سورة إبراهيم آية ٣٣.

- وقال تعالى فى سورة لقمان : ﴿ **ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار، ويولج النهار فى الليل، وسخر الشمس والقمر - كل يجرى إلى أجل مسمى - وأن الله بما تعملون خبير** ﴾سورة لقمان آية ٢٩.

- وقال تعالى فى سورة فاطر : ﴿ **وسخر الشمس والقمر - كل يجرى لأجل مسمى - ذلكم الله ربكم له الملك** ﴾سورة فاطر آية ١٣.

وجملة القول : أن الحديث عن تسخير القمر هو دعوة واضحة للبحث عن أسراره، والانتفاع به، ولا يتم ذلك التسخير إلا بالوصول إليه عن طريق العلم والعمل.

يا أخى المسلم:

بعد هذا أقول :

تحدث القرآن عن القمر فى سورة أخرى سميت باسمه - فهى سورة القمر : ﴿ **اقتربت الساعة، وانشق القمر** ﴾ سورة القمر آية ١.

والمعنى : أن الدنيا آذنت بفراق، وأنه لم يبق من حياة الكون إلا القليل - وعلينا أن نعمل قبل أن تنتهى الحياة.

﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ سورة القمر آية ١ . ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ﴾ سورة الأنبياء آية ١ - ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾سورة النحل آية ١ .

وروى الإمام أحمد أن النبى ﷺ خطب الناس - قال : فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : «أما بعد - فإن الدنيا قد آذنت بصرم، وولت حذاء (أى مسرعة) ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الماء «أى بقية قليلة من الماء» يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا منها بخير ما يحضرنكم».

فهى دعوة إلى العمل - فهل من مُدّكر؟

ولله الحمد فى الأولى والآخرة وهو الحكيم الخبير

ونسأله تعالى أن يوفقنا لما فيه خير العباد وصالح البلاد

أمين

مفاتح الغيب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا وأشهد أن لا إله إلا الله (عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو)

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ﷺ.

وبعد ..

أيها الأخ المسلم :

هذا كتاب الله - يقف بك عند حدود العلم البشرى، ويريك الغاية التى ينتهى إليها العقل الإنسانى.

لقد فتن الغربيون اليوم بمظاهر العلم المادى، ورأوا منجَزَات العلم تطير فى الفضاء، وتصل إلى الكواكب باحثةً عن معرفة جديدة / فظنوا أن مفاتيح أسرار الكون قد استجابت لذهن الإنسان.

وليس فى ذلك كله ما يناقض حقائق الإسلام - بل فيه ما يدعم مبادئه، ويقوى أصوله. للإنسان أن يبحث، وله أن يفكر - بل عليه أن يبحث ويفكر حتى يصل إلى ما أرادته له السماء. ومهما عرف - ومهما غرته مظاهر المعرفة فإن علمه شىء يسير فى كون الله ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾سورة الإسراء آية ٨٥ - ﴿**والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾سورة البقرة آية ٢٣٢.

وجدير بالعلماء، وبالمعجبين بالعلم والعلماء - أن يتخذوا من العلم دليل هداية، فإنه حين يكشف عن جديد إنما يدلل على قدرة الخالق المبدع - وهذا دليل يضاف إلى رصيد الدعوات الدينية، ولا يقف أمامها أبدا. والحقيقة التى اهتدى إليها كثير من العلماء تتلخص فى جملة واحدة «العلم يدعو للإيمان».

ولنعد إلى كتاب الله ، ولنقرأ معا قول الله: ﴿**وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو**﴾سورة الأنعام آية ٥٩ - فهذه آية قاطعة الدلالة على أن بعض الأمور/ فوق مستوى العقل

الإنسانى، وهى من خصائص القدرة الإلهية - فإذا أردت أيها الأخ الكريم أن تعرف هذه المفاتح فاقرأ قول الله : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة - وينزل الغيث - ويعلم ما فى الأرحام - وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا - وما تدرى نفس بأى أرض تموت - إن الله عليم خبير** ﴾سورة لقمان آية ٣٤.

أما خبرُ الساعة فعلمه عند الله - ﴿ **لا يجليها لوقتها إلا هو** ﴾ سورة الأعراف آية ١٨٧ - ﴿ **يسألونك عن الساعة - أيان مرساها - فيم أنت من ذكراها - إلى ربك منتهاها** ﴾ سورة النازعات آيات ٤٢، ٤٥ - أما أنت يا محمد فليس لك من أمرها إلا الإنذار ﴿ **إنما أنت منذر من يخشاها** ﴾ - وهكذا كل عالم أو رسول .

وأما الغيث فحقيقة أمره راجعة إلى الله وحده - وما يعرفه العلم اليوم لا يخرج عن كونه تنبؤًا بظواهر قد تحدث، وقد تتخلّف - والعلماء لا يعرفون خبر المطر إلا إذا ظهرت بوادره، ولاحت علاماته، فأما ما قبل ذلك فإنما هو غيب مخبوء، وسرّ مكنون، ومجهول إلا على الله.

إن قدرة الله لا تكتفى بالعلم. بل تقدر وتدبر وتخلق وتحّرك فهى من وراء العلم والإدراك.

وأما الأرحام وما فيها فسّر مغلق وقف العلم على بابه - وما يقال عن معرفة الذكر من الأنثى إنما هو أمر يحدث بعد الخلقة، وبعد تكون الجنين - أما قبل ذلك فالعلم لله وحده، وسبحانه ﴿ **يهب لمن يشاء إناثا ، ويهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ، ويجعل من يشاء عقيما - إنه عليم قدير** ﴾سورة الشورى آيات ٤٩، ٥٠.

وأما الغد المجهول بما فيه من حياة أو موت، سعادة أو شقاء، فعلمه عند الله، والعالم الذى يقف أمام مختبره وتجاربه لا يدرى من أمر التجربة شيئا، ولا يمتد علمه بالمجهول إلى شىء من الزمن الآتى صغر هذا الزمن أو طال - والتعبير بكلمة (غدا) فيه تسامح مع العقل الإنسانى، لأن العقل لا يدرى ماذا يكون بعد برهة، أو لحظة خاطفة من زمن.

وكم من عالم دانت له الأسرار، وبهرت خبرتُه الأذهان والأفكار - ثم كانت نهايته فى زمان أو مكان لم يخطر بباله، ولم يراود ذهن مخلوق من الناس - والعلم لله - والقدرة

لله، وليس الأمر مقارنة بين علم الله وعلم الناس - فالفرق بعيد - والمقارنة غير واردة - ولكنها تبصرة لمن خدعته منجزات العلم.

روى البخارى أن رسول الله ﷺ كان يوما بارزاً للناس إذ أتاه رجل يمشى فسأله عن أمور - والرسول يجيب حتى سأله الرجل قال :

(يا رسول الله - متى الساعة؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها - إذا ولدت الأمةُ ربتَها فذاك من أشراطها - وإذا كان الحفاةُ العراة رءوس الناس فذاك من أشراطها - فى خمس لا يعلمهن إلا الله.

﴿ **إن الله عنده علم الساعة - وينزل الغيث - ويعلم ما فى الأرحام - وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا - وما تدرى نفس بأى أرض تموت - إن الله عليم خبير** ﴾ سورة لقمان آية ٣٤.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد.

العطاء والحرمان

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام المتقين وقدوة الناس أجمعين وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعد..

فإنه يظن كثير من الناس أن العطاء دليل الرضا، وأن الحرمان دليل الغضب - وهكذا تسير أمور الدنيا بينهم - فالذى يرضى عنه الرئيس، أو ذو الجاه ينال من رضاه عطاء متعدد الألوان والصور، وهو من هذا الرضا فى خير عميم - والذى يغضب عليه الرئيس أو ذو الجاه يحرم الترقية والراحة، ويكلف أشق الأعمال، وهو من هذا الحرمان فى عذاب مقيم.

والحقيقة الدينية التى وضحتها الشريعة الإسلامية، أن العطاء والحرمان عند الله لا يرتبطان بالرضا والغضب - والله سبحانه وتعالى يصرف أمور الرزق بحكمة لا يعلمها إلا هو، ولقد قال فى محكم التنزيل : ﴿ **الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر - وفرحوا بالحياة الدنيا، وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع** ﴾ سورة الرعد آية ٢٦- فى هذه الآية حقيقتان : الأولى : أن العطاء والحرمان بقدر من الله - والثانية : أن الذين ينالهم خير الدنيا ونعيمها يفرحون به، مع أنه نَعيم زائل لا قيمة له، ولا يستحق أن يقابل بالفرح. ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾سورة آل عمران آية ١٨٥.

وتتسع فكرة الموضوع شيئا حين تقرأ قوله تعالى : ﴿ **قل اللهم مالك الملك، تؤتى الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير** ﴾سورة آل عمران آية ٢٦ - فالموضوع يتجاوز الرزق إلى الملك والعزة أو الذلة - ثم تتسع الفكرة شيئا آخر حين نقرأ قول الله تعالى : ﴿ **يهب لمن يشاء إناثا، ويهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا، ويجعل من يشاء عقيما، إنه عليم قدير** ﴾ سورة الشورى آيات ٤٩، ٥٠ - فموضوع الإرادة الإلهية فى العطاء والحرمان يتناول كل شىء. يتناول الرزق والأموال، ويتناول الملك والجاه والسلطان، ويتناول الأولاد بنين وبنات - وهكذا نستطيع أن نعمم الحكمة ونقول إنه يتناول كل شىء فى حياة الإنسان.

لكن - هل العطاء دليل الرضا؟ وهل الحرمان دليل الغضب؟ الجواب لا . فالله

سبحانه وتعالى يعطى الدنيا لمن أحبّ ولمن لا يحب، ولو كانت الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء. الله سبحانه وتعالى قد يحرم عبده الطائع لذائذ الدنّيا، وأطايب العيش، ويبقيه على الشظف، وضيق العيش وهو أحب إليه ممن سواه - والله تعالى قد يعطى عبده العاصى جنات تجرى من تحتها الأنهار فى الدنيا، وثروة لا نستطيع حصرها، وهو أبغض إليه ممن سواه، وصدق الله ﴿**ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة، ومعارج عليها يظهرون - ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون - وزخرفا - وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا، والآخرة عند ربك للمتقين**﴾ سورة الزخرف آيات ٣٣ : ٣٥ - فالله قد يعطى الكافر به كل نعيم الدنيا - لكنه نعيم لا قيمة له - وهو متاع فى الحياة الدنيا - والآخر للمتقين.

وفى الحديث القدسى : «إن من عبادى من لا يصلح له إلا الفقر، ولو أغنيته لفسد حاله - وإن من عبادى من لا يصلح له إلا الغنى ولو أفقرته لفسد حاله» - ونفهم من هذا أن العطاء والحرمان قد يكونان لونا من ألوان الإصلاح - على أن للأمر جانبا آخر فالأنبياء كانوا فقراء، فى الغالب - ومحمد ﷺ هو الذى قال : «اللهم أحينى مسكينا، وأمتنى مسكينا، واحشرنى فى زمرة المساكين - قيل لماذا يارسول الله؟ قال لأن رحمة الله لا تفارقهم طرفة عين - وهل كان قارون عند الله أكرم من رسوله موسى حين جعل الرسول الأمين يعمل عند شعيب ليأكل ويستطيع الزواج، وجعل للعبد العاصى أموالا لا تحصى ولا تعد؟

أمر العطاء والحرمان أجلّ من ذلك - وهو راجع إلى الإرادة الإلهية، وهي إرادة عادلة لا يمكن أن تجمع على العبد فقرا وغضبا، أو حرمانا وطردا - غير أن للمسألة وجها آخر - فقد يحرم الله العبد مالاً أو جاها - ولكنه يعطيه الصحة أو يعطيه الحكمة والعلم والمعرفة، أو يعطيه الذرية الصالحة، أو يعطيه حسن السمعة وقبول الدعوة - فهو يحرمه شيئا قليلا، ويعوضه خيرا عميما - وقد يُعطى الله عبده المال، ويحرمه الصحة، أو الولد، أو راحة الضمير فهو يعطيه القليل ويحرمه الكثير - وخلاصة الفكرة أن نترك الأمور لحكمة الله، وأن نسير فى حياتنا على أساس أن العدل الإلهى لا يمكن أن يخطئ - وأن نعمل للدنيا والآخرة - فكلٌ مُيَسَّر لما خلق له، وصدق الرسول فى قوله : «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا»

وصل اللهم وسلم على سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم.